النَّصِيْحَةُ

-1-

[أَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِيْ صَحِيْحِهِ عَنْ تَمِيْمِ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : "الدِّيْنُ النَّصِيْحَةُ، قُلْنَا : لِمَنْ؟. قَالَ : لِلَّهِ ، وَلِكِتَابِهِ ، وَلِرَسُوْلِهِ ، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِيْنَ وَعَامَّتِهِمْ ".

لَوْ فَطِنَ النَّاسُ إِلَى مَا فِي الدِّيْنِ ٱلْإِسْلاَمِيِّ مِنْ خَيْرٍ وَسَعَادَةٍ ، وَتَنَبَّهُوْا إِلَى مَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ تَعَالِيْمُهُ مِنْ رَشَادٍ وَحِكْمَةٍ ، وَآثَرُوْا إِخْلاَصَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ عَلَى تَعَصُّبِهِمْ لِآرَائِهِمْ وَمَوْرُوْثَاتِهِمْ ، وَأَنْصَفُوْا هَذَا الدِّيْنَ حَقَّ إِنْصَافِهِ – لَبَادَرُوْا جَمِيْعًا إِلَى اعْتِنَاقِ مَبَادِئِهِ ، وَٱلْإِنْضِوَاءِ تَحْتَ لِوَائِهِ ، وَٱلْإِسْتِظْلاَلِ بِرَايَتِهِ ، وَلَسَارَعُوْا إِلَى ٱلْإِعْتِصَامِ بِحُصْنِهِ الْحَصِيْنِ ، وَٱلْإِسْتِمْسَاكِ بِحَبْلِهِ الْمَتِيْنِ .

فَهَذَا مَبْدَأُ التَّنَاصُحِ الَّذِيْ يُنَادِى بِهِ النَّاصِحُ ٱلْأَعْظَمُ ﷺ وَيَعْتَبِرُهُ كُلَّ الدِّيْنِ ، وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ عَمَّمُوْهُ فِيْمَا بَيْنَهُمْ ، وَتَرَسَّمُوْهُ فِيْ مُعَامَلاَتِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ ، وَاتَّبَعُوْا هَدْيَهُ فِيْ كُلِّ أُمُوْرِهِمْ ، وَجَمِيْعِ شُئُوْنِهِمْ – لَسَعِدَ حَالُ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَعَاشَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ، وَلَتَجَنَّبَ كَثِيْرًا مِنَ الْمَشَاكِلِ وَالشُّرُوْرِ الَّتِيْ هِيَ فِي الْغَالِبِ لَيْسَتْ إِلاَّ نَتِيْجَةً لِتَرْكِ التَّنَاصُحِ ، وَلِشُيُوْعِ سُوْءِ الظَّنِّ ، وَانْتِشَارِ فُقْدَانِ الثِّقَةِ بَيْنَ ٱلْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ .]

وَلِخُطُوْرَةِ هَذَا الْمَبْدَأِ ، وَعَظِيْمِ أَثَرِهِ فِي إِصْلاَحِ حَالَةِ الْمُجْتَمَعِ ، قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ عَنْ هَذَا الْحَدِيْثِ : إِنَّهُ أَصْلٌ

عَظِيْمُ الشَّأْنِ ، وَإِنَّهُ عَلَيْهِ وَحْدَهُ مَدَارُ ٱلإِسْلاَمِ ؛ وَقَالَ بَعْضُ آخَرِ : إِنَّهُ أَحَدُ ٱلأَحَادِيْثِ الَّتِي تَجْمَعُ أُمُوْرَ ٱلإِسْلاَمِ .

-2-

وَفِي اعْتِقَادِنَا أَنَّهُ لاَ غَرَابَةَ فِيْمَا يَقُوْلُ هَؤُلاَءِ الْعُلَمَاءُ وَلأَنَّ النَّصِيْحَةَ فِي الْوَاقِعِ إِنَّمَا تَنْبَعِثُ عَنِ الرَّغْبَةِ ٱلأَكِيْدَةِ فِي

مَصْلَحَةِ الْمَنْصُوْحِ لَهُ وَعَنِ ٱلإِهْتِمَامِ بِشَأْنِهِ وَالْقَصْدِ إِلَى مَا يَعُوْدُ عَلَيْهِ بِالْخَيْرِ وَالنَّفْعِ ، وَلاَ شَكَّ أَنَّ الْمَنْصُوْحَ إِذَا شَعَرَ بِكُلِّ

ذَلِكَ مِنْ جَانِبِ النَّاصِحِ اِطْمَأَنَّ إِلَيْهِ ، وَوَثِقَ بِهِ ، وَإِذَا تَوَافَرَتْ الطَمَأْنِيْنَةُ فِي النُّفُوْسِ ، وَتَبَوْدَلَتِ الثِّقَةُ بَيْنَ النَّاسِ ، فَإِنَّهُمْ

يَسْتَطِيْعُوْنَ أَنْ يَحْيَوْا حَيَاةً سَعِيْدَةً هَانِئَةً ، خَالِيَةً مِنْ كَثِيْرٍ مِمَّا نَرَاهَا الْيَوْمَ مَشْحُوْنَةٌ بِهِ مِنْ مَتَاعِبِ وَآلاَمِ .

وَكَيْفَ لاَيَكُوْنُ هَذَا الْحَدِيْثُ الشَّرِيْفُ جَامِعًا لِلْكَثِيْرِ مِنَ الْمَبَادِىءِ وَالتَّعَالِيْمِ ٱلإِسْلاَمِيَّةِ ، وَهُوَ يُقَرِّرُ فِي عِبَارَتِهِ

الْوَجِيْزَةِ الْجَامِعَةِ، وَلِلُغَتِهِ السَّهْلَةِ الْوَاضِحَةِ أَنَّ قَوَامَ الدِّيْنِ ، وَعِمَادَ ٱلإِسْلاَمِ إِنَّمَا هُوَ فِي بَذْلِ النُّصْحِ ، وَإِسْدَائِهِ لِمَنْ هُوَ لَهُ

أَهْلٌ.

وَإِنَّنَا إِذَا عَرَفْنَا أَنَّ النَّصِيْحَةَ هِيَ : تَحَرِّى فِعْلَ أَوْ قَوْلَ فِيْهِ صَلاَحُ صَاحِبِهِ ، وَأَنَّهَا فِي كَلاَمِ الْعَرَبِ مَأْخُوْذَةٌ مِنْ

قَوْلِهِمْ : نَصَحَ الرَّجُلُ ثَوْبَهُ – إِذَا خَاطَهُ. فَشَبَّهُوْا فِعْلَ النَّاصِحِ فِيْمَا يَتَحَرَّاهُ مِنْ صَلاَحِ الْمَنْصُوْحِ لَهُ بِمَا يَسُدُّهُ مِنْ خَلَلِ

الثَّوْبِ، أَوْ مَأْخُوْذَةٌ مِنْ قَوْلِهِمْ : نَصَحْتُ الْعَسَلَ – إِذَا صَفَّيْتُهُ مِنَ الشَّمْعِ ، فَشَبَّهُوْا تَخْلِيْصَ الْقَوْلِ مِنَ الْغَشِّ بِتَخْلِيْصِ

الْعَسَلِ مِنَ الْخَلْطِ . إِذَا عَرَفْنَا هَذَا أَدْرَكْنَا مِقْدَارَ مَا تَنْطَوِى عَلَيْهِ هَذِهِ الوَصِيَّةُ النَّبَوِيَّةُ الْكَرِيْمَةُ مِنْ شُمُوْلِ تَعَالِيْمِ ٱلإِسْلاَمِ ،

وَتَنَاوَلَ لِمَبَادِئِهِ الرَّشِيْدَةِ .

-3-

يَنْتَقِلُ بِنَا الْحَدِيْثُ الشَّرِيْفُ بَعْدَ تَقْرِيْرِ هَذِهِ الْمُحَكَّمَةِ ٱلإِجْتِمَاعِيَّةِ السَّامِيَةِ ، إِلَى بَيَانِ مَنْ تَجِبُ لَهُمُ النَّصِيْحَةُ.

فَيَذْكُرُ أَوَّلاً: أَنَّهَا وَاجِبَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَمَعْنَاهَا : "الإِخْلاَصُ لَهُ سُبْحَانَهُ فِي جَمِيْعِ ٱلأُمُوْرِ ، وَذَلِكَ مَصْرُوْفٌ إِلَى

ٱلإِيْمَانِ بِهِ ، وَنَفْيِ الشَّرِيْكِ عَنْهُ ، وَتَرْكِ ٱلإِلْحَادِ فِي صِفَاتِهِ ، وَوَصْفِهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَالْجَلاَلِ وَتَنْزِيْهِهِ عَنْ جَمِيْعِ النَّقَائِصِ ،

وَالْقِيَامِ بِطَاعَتِهِ، وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ وَالْحُبِّ فِيْهِ وَالْبُغْضِ فِيْهِ وَمُوَالاَةِ مَنْ أَطَاعَهُ ، وَمُعَادَاةِ مَنْ عَصَاهُ ، وَجِهَادِ مَنْ كَفَرَ بِهِ ،

وَٱلإِعْتِرَافِ بِنِعْمَتِهِ وَشُكْرِهِ عَلَيْهَا ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى جَمِيْعِ هَذِهِ ٱلأَوْصَافِ ، وَالْحَثِّ عَلَيْهَا ، وَالتَّلَطُّفِ فِي جَمْعِ النَّاسِ أَوْ مَنْ

أَمْكَنَ مِنْهُمْ حَوْلَهَا .

وَيَذْكُرُ– ثَانِيًا : أَنَّهَا وَاجِبَةٌ لِكِتَابِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ؛ وَمَعْنَاهَا : "الإِيْمَانُ بِأَنَّهُ كَلاَمَ اللهِ تَعَالَى وَتَنْزِيْلَهُ ، لاَ يُشَبِّهُهُ

شَيْءٌ مِنْ كَلاَمِ الْخَلْقِ ، وَلاَ يَقْدِرُ عَلَى مِثْلِهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ ، ثُمَّ تَعْظِيْمُهُ وَتِلاَوَتُهُ ، وَتَحْسِيْنُهَا ، وَالْخُشُوْعُ عِنْدَهَا ، وَإِقَامَةُ

حُرُوْفِهِ فِي التِّلاَوَةِ ، وَالذَّبُّ عَنْهُ لِتَأْوِيْلِ الْمُحَرِّفِيْنَ وَتَعَرُّضِ الطَّاعِنِيْنَ ، وَالتَّصْدِيْقُ بِمَا فِيْهِ ، وَالْوُقُوْفُ مَعَ أَحْكَامِهِ ، وَتَفَهُّمُ

عُلُوْمِهِ وَأَمْثَالِهِ ، وَالْإِعْتِبَارُ بِمَوَاعِظِهِ ، وَالتَّفَكُّرُ فِي عَجَائِبِهِ ، وَالْعَمَلُ بِمُحْكَمِهِ ، وَالتَّسْلِيْمُ لِمُتَشَابِهِهِ ، وَالْبَحْثُ عَنْ عُمُوْمِهِ

وَخُصُوْصِهِ ، وَنَاسِخِهِ وَمَنْسُوْخِهِ ، وَنَشْرُ عُلُوْمِهِ وَمَعَارِفِهِ .

- 4 -

وَيَذْكُرُ– ثَالِثًا: أَنَّهَا وَاجِبَةٌ لِلرَّسُوْلِ ﷺ مَعْنَاهَا : "تَصْدِيْقُهُ عَلَى الرِّسَالَةِ ، وَالْإِيْمَانُ بِجَمِيْعِ مَا جَاءَ بِهِ ، وَطَاعَتُهُ فِي

أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، وَنُصْرَتُهُ حَيًّا وَمَيْتًا ، وَمُعَادَاةُ مَنْ عَادَاهُ ، وَمُوَالاَةُ مَنْ وَالاَهُ ، وَإِعْظَامُ حَقِّهِ وَتَوْقِيْرُهُ ، وَإِحْيَاءُ طَرِيْقَتِهِ ، وَسُنَّتِهِ

، وَبَثُّ دَعْوَتِهِ ، وَنَشْرُ شَرِيْعَتِهِ وَنَفْيُ التُّهْمَةِ عَنْهَا ، وَاسْتِثَارَةُ عُلُوْمِهَا ، وَالتَّفَقُّهُ فِي مَعَانِيْهَا ، وَالدُّعَاءُ إِلَيْهَا ، وَالتَّلَطُّفُ فِي

تَعَلُّمِهَا وَتَعْلِيْمِهَا ، وَإِعْظَامُهَا وَإِجْلاَلُهَا، وَالتَّأَدُّبُ عِنْدَ قِرَاءَتِهَا ، وَالْإِمْسَاكُ عَنِ الْكَلاَمِ فِيْهَا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَإِجْلاَلُ

أَهْلِهَا لانْتِسَابِهِمْ إِلَيْهَا وَالتَّخَلُّقُ بِأَخْلاَقِهِ ، وَالتَّأَدُّبُ بِآدَابِهِ ، وَمَحَبَّةُ أَهْلِ بَيْتِهِ وَأَصْحَابِهِ ، وَمُجَانَبَةُ مَنِ ابْتَدَاعَ فِي سُنَّتِهِ ، وَمَا

إِلَى ذَلِكَ .

وَيَذْكُرُ– رَابِعًا : أَنَّهَا وَاجِبَةٌ لِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِيْنَ ، وَإِذَا كَانَ الْمُرَادُ بِهِمْ الرُّعَاةَ وَغَيْرَهُمْ مِمَّنْ يَقُوْمُوْنَ بِأُمُوْرِ الْمُسْلِمِيْنَ

مِنْ أَصْحَابِ الْوِلاَيَاتِ ، فَمَعْنَى النَّصِيْحَةِ لَهُمْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ : "مُعَاوَنَتُهُمْ عَلَى الْحَقِّ ، وَطَاعَتُهُمْ فِيْهِ ، وَأَمَرَهُمْ بِهِ ،

وَتَنْبِيْهُهُمْ وَتَذْكِيْرُهُمْ بِرِفْقٍ وَلُطْفٍ ، وَإِعْلاَمُهُمْ بِمَا غَفَلُوْا عَنْهُ ، وَلَمْ يَبْلُغْهُمْ مِنْ حُقُوْقِ الْمُسْلِمِيْنَ ، وَتَرْكُ الْخُرُوْجِ عَلَيْهِمْ ،

وَتَأَلُّفَ قُلُوْبُ النَّاسِ لِطَاعَتِهِمْ ، وَالصَّلاَةُ خَلْفَهُمْ ، وَالْجِهَادُ مَعَهُمْ ، وَأَدَاءُ الْجَبَايَاتِ إِلَيْهِمْ ، وَتَعَهَّدَهُمْ بِالتَّذْكِيْرِ وَالْإِرْشَادِ إِذَا

ظَهَرَ مِنْهُمْ حَيْفٌ أَوْ سُوْءُ عُشْرَةٍ وَعَدَمُ تَغْرِيْرِهِمْ بِالثَّنَاءِ الْكَاذِبِ عَلَيْهِمْ ، وَالدُّعَاءُ لَهُمْ بِالتَّوْفِيْقِ وَالصَّلاَحِ".

أَمَّا إِذَا كَانَ الْمُرَادُ بِهِمِ ٱلأَئِمَّةَ الَّذِيْنَ هُمُ الْعُلَمَاءُ الدِّيْنِ ، فَمَعْنَى النَّصِيْحَةِ لَهُمْ: "قَبُوْلُ مَا رَوَوْهُ ، وَتَقْلِيْدَهُمْ فِي

ٱلأَحْكَامِ ، وَإِحْسَانُ الظَّنِّ بِهِمْ ، وَإِجْلاَلُهُمْ وَإِكْبَارُهُمْ".

وَيَذْكُرُ– خَامِسًا : أَنَّهَا وَاجِبَةٌ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِيْنَ ؛ وَمَعْنَاهَا : "إِرْشَادُهُمْ لِمَصَالِحِهِمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ وَكَفَّ

ٱلْأَذَى عَنْهُمْ ، وَتَعْلِيْمُهُمْ مَا يَجْهَلُوْنَ مِنْ دِيْنِهِمْ وَيُعِيْنُهُمْ عَلَيْهِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ، وَسِتْرُ عَوْرَاتِهِمْ ، وَسَدُّ خَلاَّتِهِمْ ، وَدَفْعُ

الْمُضَارِ عَنْهُمْ ، وَجَلْبُ الْمَنَافِعِ لَهُمْ ، وَأَمَرَهُمْ بِالْمَعْرُوْفِ ، وَنَهَيهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، بِرِفْقٍ وَإِخْلاَصٍ ، وَالشَّفَقَةُ عَلَيْهِمْ وَتَوْقِيْرُ

كَبِيْرِهِمْ ، وَرَحْمَةُ صَغِيْرِهِمْ ، وَتَخَوَّلُهُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَتَرْكُ غَشِّهِمْ وَحَسْدِهِمْ ، وَحُبُّ الْخَيْرِ لَهُمْ كَمَا يُحِبُّهُ لِنَفْسِهِ ، وَكَرِهَ

مَا يَكْرَهُهُ لَهَا ، وَالذَّبُّ عَنْ أَعْرَاضِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَجَمِيْعِ أَحْوَالِهِمْ بِالْقَوْلِ ، وَالْفِعْلِ ، وَحَثُّهُمْ عَلَى التَّخَلُّقِ بِجَمِيْعِ ذَلِكَ ،

وَتَنْشِيْطُ هِمَمِهِمْ عَلَى الطَّاعَاتِ".

هَذَا مَا عَرَضَ لَهُ الْحَدِيْثُ الشَّرِيْفُ فِي بَيَانِ مَنْ تَجِبُ لَهُمُ النَّصِيْحَةُ ، وَهُوَ كَمَا تَرَى لَمْ يَدَعْ أَحَدًا ، مِنَ الْخَالِقِ إِلَى

الْخَلاَئِقِ ، إِلاَّ وَقَدْ نَبَّهَ عَلَى الْوَاجِبِ نَحْوَهُ مِنَ النَّصِيْحَةِ لَهُ ؛ فَيَالَيْتَ شِعْرِى ، كَيْفَ يَكُوْنُ حَالُ ٱلإِنْسَانِيَّةِ لَوْ أَنَّهَا أَخَذَتْ

بِهَذَا الْمَبْدَأِ ، وَسَارَتْ عَلَيْهِ ، وَتَرَسَّمَتْ طُرُقَهُ ؟

إِنَّهَا سَتَجِدُ عَالَمًا مِثَالِيًّا ، مَمْلُوْءًا بِالأَمَانِ وَالاِطْمِئْنَانِ وَحَافِلاً بِالْهُدُوْءِ وَالإِسْتِقْرَارِ . وَإِنَّهَا سَتَتَجَنَّبُ كَثِيْرًا مِنْ

شُرُوْرِ الْحَيَاةِ وَوَيْلاَتِهَا ، وَأَوْضَارِ الْمَدَنِيَّاتِ ، وَأَوْزَارِهَا ؛ لأَنَّ ٱلأَفْرَادَ وَالأُمَمَ وَالدُّوَلَ الْوَاقِفَ كُلٌّ مِنْهَا لِلأُخْرَى بِالْمِرْصَادِ ، لَوْ

سَاسَتْ أُمُوْرُهَا عَلَى ضَوْءِ التَّنَاصُحِ ، وَتَفَاهَمَتْ فِيْهَا عَلَى مُقْتَضَ مَا يَدْعُوْ إِلَيْهِ مِنْ إِخْلاَصِ ، وَحُسْنُ نِيَّةٍ لَعَلِمَ النَّاسُ أَنَّ

كَثِيْرًا مِنَ الْخِلاَفَاتِ الشَّخْصِيَّةِ ، وَالْمُنَازَعَاتِ الدَّوْلِيَّةِ ،

وَالْمَشَاكِلِ الْعَالَمِيَّةِ ، لاَ تَلْبِثُ أَنْ يَنْتَهِى خَطَرُهَا ، وَيَزُوْلَ أَثَرُهَا ، وَلاَ يَكُوْنُ لَهَا وُجُوْدٌ فَوْقَ رُقْعَةِ ٱلأَرْضِ .

فَأَنْعَمَ بِٱلإِسْلاَمِ وَبِنَبِيِّ ٱلإِسْلاَمِ ، وَبِمَا جَاءَتْ بِهِ شَرِيْعَتُهُ الْحَكِيْمَةُ ، مِنْ أَنْظِمَةٍ دَقِيْقَةٍ ، وَمَثَلٍ عُلْيَا ! .

تَكَلَّمَ الْعُلَمَاءُ بَعْدَ هَذَا فِي الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ لِلنَّصِيْحَةِ، فَقَالُوْا : إِنَّهَا فَرْضٌ يَجْرِى فِيْهِ مَنْ قَامَ بِهِ ، وَيَسْقُطُ عَلَى

البَاقِيْنَ ، وَإِنَّهَا لاَزِمَةٌ عَلَى قَدْرِ الطَّاقَةِ ؛ فَإِذَا عَلِمَ النَّاصِحُ أَنَّهُ يُقْبَلُ نَصْحُهُ ، وَيُطَاعُ أَمْرُهُ ، وَيَأْمَنُ عَلَى نَفْسِهِ الْمَكْرُوْهَ

أَقْدَمَ عَلَيْهَا ، وَإِنْ خَشِيَ نَفْسَهُ ٱلأَذَى مِنْ وَرَائِهَا ، كَانَ فِي سَعَةٍ مِنْ تَرْكِهَا .

وَهَذَا فِي ٱلأَحْوَالِ الَّتِي تَكَادُ تَكُوْنُ الْوَجْهَةُ فِيْهَا فَرْدِيَّةً مِنْ جَانِبِ النَّاصِحِ وَالْمَنْصُوْحِ ؛ أَمَّا فِي ٱلأَحْوَالِ الَّتِي لَهَا

صِبْغَةٌ عَامَّةٌ ، فَإِنَّهُ يَنْبَغِى أَنْ يَنْهَضَ لَهَا الْعُقَلاَءُ وَالْمُفَكِّرُوْنَ ، وَأَنْ يَتَوَخُّوْا بِهَا مَا يَكْفُلُ حُصُوْلَ ٱلأَثَرِ ، وَبُلُوْغَ الْغَايَةِ.

(٢) بِلاَلُ

-1-

[دَلَفَ الرَّجُلُ إِلَى أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ ، وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ مِنْ نَادِيْهِ فِي قُرَيْشٍ ، وَقَالَ لَهُ: " أَوْ مَا بَلَغَكَ الْخَبَرُ؟".

قَالَ أُمَيَّةُ : " وَمَا كَانَ؟". قَالَ : " لَقَدْ شَهِدْتُ عَبْدَكَ بِلاَلاً يَخْتَلِفُ إِلَى مُحَمَّدٍ فِي ظَلاَمِ اللَّيْلِ آنًا ، وَهُوَ خَائِفٌ فِي

مَشْيَتِهِ ، يَبْدُو عَلَيْهِ الْحَذْرُ فِي لَفْتَتِهِ ، وَلَقَدْ يُخَيَّلُ إِلَيَّ فِيْمَا تَوَسَّمْتُهُ فِي وَجْهِهِ ، وَاسْتَقْرَأْتُهُ مِنْ حَالَتِهِ ، أَنَّهُ دَخَلَ فِيْمَا

يَدْعُو إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ ، وَانْخَرَطَ فِيْمَا تَهَاوَى فِيْهِ كَثِيْرٌ مِنْ قَوْمِنَا فِي هَذَا الدِّيْنِ". قَالَ أُمَيَّةُ لِمُحَدِّثِهِ : " أَحَقًّا مَا تَقُوْلُ؟

وَعَلَى بَيِّنَةٍ أَنْتَ مِمَّا تَرْوِى؟". قَالَ الرَّجُلُ : " نَعَمْ ، وَلِهَذَا نَفَضْتُ عَلَيْكَ الْخَبَرَ ، وَأَفْضَيْتُ إِلَيْكَ بِمَا أَرَى، لِتُهَذِّبَ

هَذَا الْعَبْدَ ، وَتَقْضِى عَلَى هَذِهِ الْفِتْنَةِ الَّتِي تُوْشِكُ أَنْ يَنْدَلَعَ لَهِيْبُهَا بَيْنَ الْمَوَالِى ، وَقَدْ أَخَذَتْ سَبِيْلَهَا بَيْنَ

الْأَشْرَافِ".]

انْفَتَلَ أُمَيَّةُ مِنْ مَجْلِسِهِ إِلَى دَارِهِ ، وَإِنَّ قَلْبَهُ لَيَحْتَرِقُ مِنَ الْغَيْظِ وَهُوَ يَعُدُّ لِبَلاَلٍ الشَّرَّ وَالْمَكْرُوْهَ. وَجَاءَهُ بِلاَلُ،

وَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ يَضْطَرِبُ وَيَرْتَعِدُ أَنْ رَأَى الشَّرَّ يَلْمَعُ فِي عَيْنَيْهِ ، وَنَارَ الْغَيْظِ تَكَادُ تَخْرُجُ أَوَارَهَا مِنْ بَيْنَ جَنْبَيْهِ.

قَالَ أُمَيَّةُ : " مَا هَذَا الَّذِي بَلَغَنِي عَنْكَ ، وَتَرَامِى إِلَيَّ مِنْ أَمْرِكَ؟. أَحَقًّا مَا يُقَالُ إِنَّكَ تَخْتَلِفُ إِلَى مُحَمَّدٍ تَحْتَ رَوَاقِ

مِنَ الظَّلاَمِ ، أَوْ سِتَارِ مِنْ قَائِلَةِ النَّهَارِ ، وَإِنَّكَ آمَنْتَ بِدَعْوَتِهِ ، وَاسْتَجَبْتَ إِلَى أَوْهَامِهِ وَضَلاَلِهِ ، كَافِرًا بِاللاَّتَ وَالْعُزَّى ،

صَابِئًا عَنْ آلِهَةِ قُرَيْشٍ وَالْعَرَبِ؟".

قَالَ بِلاَلُ : " أَمَا إِذْ وَصَلَ إِلَيْكَ عَمَلِي ، وَانْتَهَى إِلَيْكَ إِسْلاَمِي ، فَإِنِّي لاَ أَكْتُمُكَ أَنِّي قَدْ جِئْتُ مُحَمَّدًا فَآمَنْتُ

بِرِسَالَتِهِ ، وَصَدَّقْتُهُ فِيْمَا يَدْعُو إِلَيْهِ ، وَلاَ عَلَيَّ بَعْدَ أَنْ حَدَّثْتُكَ أَنْ يَعْلَمَ النَّاسَ جَمِيْعًا أَمْرِي".

-2-

قَالَ أُمَيَّةُ : "أَوْ مَا عَلِمْتَ أَنَّكَ مَمْلُوْكٌ فِي يَمِيْنِي ، وَعَبْدٌ رَقِيْقٌ كَبَقِيَّةِ مَتَاعِي ، وَإِنِّي مِنْ يَوْمِ أَنِ اشْتَرَيْتُكَ إِنَّمَا

اشْتَرَيْتُ جِسْمَكَ وَعَقْلَكَ ، وَتَمَلَّكْتُ رُوْحَكَ وَجَوَارِحَكَ ، وَأَنَّهُ لاَ قُدْرَةَ لِعَقْلِكَ أَنْ يَعْتَقِدَ مَا يَشَاءُ ، وَلاَ لِتَفْكِيْرِكَ أَنْ

يَذْهَبُ أَنَّى شَاءَ. فَمَا هَذَا الَّذِي تُجَاوِزُ بِهِ حَدَّكَ ، وَتَخْرُجُ بِهِ عَلَى دِيْنِ سَيِّدِكَ".

قَالَ بِلاَلُ : أَمَّا إِنِّي عَبْدُكَ وَأَسِيْرُكَ ، وَخَادِمُكَ وَمَوْلاَكَ ، فَهَذَا مَا لاَ أَنْكَرَهُ عَلَيْكَ ، وَلَوْ أَمَرْتَنِي بِقَطْعِ وَادِ مُسْبُعٍ فِي جَوْفِ

الظَّلاَمِ لَفَعَلْتُ ، أَوْ كَلَّفْتَنِي حَمْلَ الأَحْجَارِ فِي مَسَاءِ الظَّهِيْرَةِ لَمَا شَكَوْتُ. أَمَّا عَقْلِي وَفِكْرِي ، وَعَقِيْدَتِي وَإِيْمَانِي ، فَهَذَا

الَّذِي لاَ يَقَعُ تَحْتَ سُلْطَانِكَ ، وَلاَ يَدْخُلُ فِي حَوْزَتِكَ وَلاَ إِمْكَانِكَ ، وَمَا يَضِيْرُكَ مِنْ إِيْمَانِي وَإِسْلاَمِي؟ وَمَا يُهِمُّكَ فِي أَنْ

أَمْلِكَ عَقْلِي ، وَتَفْكِيْرِي ، مَادُمْتُ قَائِمًا عَلَى خِدْمَتِكَ حَافِظًا لِعَهْدِكَ".

قَالَ–أُمَيَّةُ– وَقَدْ ثَارَ ثَائِرَهُ ، وَهَاجَ هَائِجُهُ : " لَسْتَ أَيُّهَا الْعَبْدُ إِلاَّ مَمْلُوْكًا لِي مِنْ مَفْرَقِ[1] رَأْسِكَ إِلَى أَخْمَصِ[2] قَدَمِكَ ، وَفِيْمَا بَيْنَ ذَلِكَ مِنْ عَقْلِكَ وَتَفْكِيْرِكَ ، حَتَّى خَلِيْجَاتِ قَلْبِكَ، وَخَطَرَاتِ نَفْسِكَ وَهَمَسَاتِ لِسَانِكَ ، لاَ تَمْلِكُ ذَلِكَ شَيْئًا. وَسَأُذِيْقَكَ مِنْ أَلْوَانِ الْعَذَابِ ، وَضُرُوْبِ النَّكَالِ ، حَتَّى أَسْتَلَ مَا تَعْتَقِدُهُ مِنْ قَلْبِكَ ، وَأُمَزِّقَ نَسِيْجَ مَا تَتَوَهَّمُ بَيْنَ أَلْفَافِ صَدْرِكَ". ثُمَّ هَجَمَ عَلَيْهِ مُغِيْظًا مُهْتَاجًا ، عَزِيْزًا قَادِرًا ، غَلِيْظَ الْكَبِدِ ، شَدِيْدَ الْوَطْأَةِ ، وَشَدَّ وَثَاقَهِ ، وَقَيَّدَ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ ، وَدَفَعَ بِهِ إِلَى الصِّبْيَانِ فِي بَطَحَاءِ[3] مَكَّة يَتَلَعَّبُوْنَ بِهِ ، وَيَقْذِفُوْنَهُ كَالْكُرَّةِ ، وَيَدْفَعُوْنَهُ كَسَقْطِ الْمَتَاعِ. وَعَادَ أُمَيَّةُ فِي أَعْقَابِ يَوْمِهِ إِلَى بِلاَلٍ يَشْهَدُ مَصْرَعَ ٱلْإِيْمَانِ فِي قَلْبِهِ، وَيَرَى مَبْلَغَ الْعَذَابِ مِنْ نَفْسِهِ وَجِسْمِهِ. وَلَكِنْ مَاذَا عَسَى أَنْ يَبْلُغَ الْعَذَابُ مِنْ نَفْسٍ أَسْلَمَتْ لِلَّهِ ، وَوَجَّهَتْ وَجْهَهَا لِلَّهِ؟ وَمَا الْقَيْدُ وَٱلأَغْلاَلُ ، وَمَا الْكَيْدُ وَالنَّكَالُ بِجَانِبِ حَلاَوَةِ ٱلْإِيْمَانِ الَّتِي ذَاقَهَا ، وَنِعْمَةِ ٱلْإِسْلاَمِ الَّتِي يَنْعَمُ قَلْبُهُ بِهَا.

-3-

قَالَ لَهُ : "كَيْفَ وَجَدْتَ الْعَذَابَ يَا بِلاَلُ؟ أَخَيْرٌ لَكَ مَا أَنْتَ فِيْهِ مِنْ هَمٍّ وَبَلاَءٍ، أَمْ عَوْدَةٌ إِلَى اللاَّتَ وَالْعُزَّى ،

[1] المفرق : وسط الرأس
[2] الأخمص : ما دخل من باطن القدم فلم يصب الأرض
[3] البطحاء : مؤنث الأبطح، وهو سيل واسع فيه دقاق الحصى

وَكَفَرَ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ، وَمَا يَزْعُمُهُ مِنْ دِيْنٍ؟".

فَنَظَرَ إِلَيْهِ نَظْرَةً جَمَعَ فِيْهَا كُلُّ مَا تَطْوِيَةُ نَفْسِهِ مِنَ احْتِمَالِ لِلْعَذَابِ ، وَاسْتِعْدَادِ لِلْبَلاَءِ ، وَاحْتِقَارِ لِمَا يُوْقِعُهُ بِهِ أُمَيَّةُ مِنْ تَعْذِيْبٍ وَإِيْذَاءٍ. وَكَأَنَّهُ يَقُوْلُ لَهُ : " قَدْ تَمْلِكُ السَّوْطَ تَنَالُ بِهِ جِسْمِي ، وَالْحَبْلَ تَغِلُّ بِهِ عُنُقِي وَرِجْلِي ، بَلْ لَكَ السَّهْمُ الَّذِي تَسْتَطِيْعُ أَنْ تُسَدِّدَهُ إِلَى نَحْرِي ، وَالسَّيْفُ تَضْرِبُ بِهِ عُنُقِي ، وَأَمَّا أَنْ تَمْلِكَ عَقْلِي وَقَلْبِي، وَتَحْتَكِمُ فِي دِيْنِي وَعَقِيْدَتِي ، فَهَذَا الَّذِي لاَ تَسْتَطِيْعُ أَنْ يَنَالَهُ بَطْشُكَ ، وَالذَّرْوَةُ الَّتِي لاَ تَسْتَطِيْعُ أَنْ تَرْقِيْهَا بِقُوَّتِكَ وَسُلْطَانِكَ".

ثُمَّ مَا زَادَ بَعْدَ نَظْرَتِهِ عَلَى أَنْ قَالَ : " (أَحَدٌ أَحَدٌ) " إِعْلاَنًا لِسَيِّدِهِ بِأَنَّهُ سَيَظِلُّ عَلَى تَوْحِيْدِهِ وَإِيْمَانِهِ ، وَعَقِيْدَتِهِ وَإِذْعَانِهِ ، وَإِنْ تَرَادَفَتْ عَلَيْهِ ضُرُوْبُ الْمِحَنِ ، وَاسْتَقْبَلَتْهُ صُنُوْفُ الْبَلاَءِ.

وَطَلَعَتْ الشَّمْسُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي قَوِيَّةً مُلْتَهِبَةً ، وَانْبَسَطَتْ أَشْعَتُهَا عَلَى الصَّحْرَاءِ، فَاسْتَوْقَدُ أَدِيْمُهَا ، وَاضْرِمُ بِالنَّارِ إِهَابَهَا. وَجَاءَ أُمَيَّةُ بِبِلاَلٍ ، فَأَضْجَعَهُ عَلَى الرَّمْضَاءِ[٤] وَأَتَى بِصَخْرَةٍ عَاتِيَةٍ فَأَرَاحَهَا عَلَى صَدْرِهِ ، وَظَلَّ بِلاَلُ بَيْنَ رَمْضَاءٍ مُلْتَهِبَةٍ، وَصَخْرَةٍ ثَقِيْلَةٍ قَاسِيَةٍ ، وَفِيْمَا بَيْنَ ذَلِكَ الشَّمْسِ تَقْذِفُهُ بِسِهَامِهَا وَالرِّيْحِ تُزْجَى إِلَيْهِ غَبَارُهَا، وَلَكِنْ كُلُّ هَذَا وَبِلاَلٌ

[٤] الرمض: شدة وقع الشمس على الأرضوالأرض رمضاء

لَمْ يَتَغَيَّرْ حَرْفًا مِنَ الْكَلِمَةِ الَّتِي اصْبَحَتْ شِعَارَهُ وَعَقِيْدَةَ وَعُنْوَانَ إِسْلاَمِهِ وَإِيْمَانِهِ : " (أَحَدٌ أَحَدٌ) " ، هُوَ اللهُ الَّذِي أَعْبُدُهُ

وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ ، وَهُوَ الَّذِي أَقْصِدُهُ وَأَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ، لاَيُضِيْرَنِي هَذَا الْعَذَابُ ، وَلاَ يُزَحْزِحُنِي عَنِ ٱلإِيْمَانِ بِهِ هَذَا الْعِقَابُ.

-4-

(أَحَدٌ أَحَدٌ) ، هُوَ اللهُ وَحْدَهُ الَّذِي أَسْتَدْفِعُ بِهِ الْبَلْوَى ، وَأَلْتَجِىءُ إِلَيْهِ فِي الْمِحْنَةِ الْكُبْرَى ، وَإِنْ ضَاقَتْ مَنَافِذُ

ٱلأَمَلِ ، وَرَثَّتْ حِبَالُ الرَّجَاءِ.

(أَحَدٌ أَحَدٌ) هُوَ اللهُ وَحْدَهُ الَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا رَسُوْلاً ، وَمُرْشِدًا أَمِيْنًا ، وَمِنْ نَعْمَاءِ عَلَيَّ إِنْ كُنْتُ مِنْ تَابِعِيْهِ.

وَمِنْ مُحِبِّيْهِ وَمُرِيْدِيْهِ ، وَكَفَاءً لِهَذِهِ النَّعْمَى سَأَصْبِرُ عَلَى هَذَا الْبَلاَءِ ، وَأَصْمُدُ لِذَلِكَ الْقَضَاءِ.

ثُمَّ مَازَالَتْ ٱلأَيَّامُ تَتَوَالَى وَتَتَابَعُ ، وَأَلْوَانُ الْعَذَابِ عَلَى بِلاَلٍ تَتَرَادَفُ ، وَأُمَيَّةُ مَا يَزْدَادُ إِلاَّ غَيْظًا وَحَقْدًا.

[وَمَا يَلْقَى مِنْ بِلاَلٍ إِلاَّ صَبْرًا وَاحْتِسَابًا حَتَّى كَانَ أَبُوْ بَكْرٍ يَمْشِى يَوْمًا فِي بَعْضِ شِعَابِ مَكَّةَ ، فَإِذَا بِلاَلٌ

يَئِنُّ مِنْ آلاَمِهِ ، وَيَتْلُوَى فِي مِحْنَتِهِ ، وَأُمَيَّةُ وَاقِفٌ أَمَامَهُ فِي كِبْرِهِ وِجَهْلِهِ وَظُلْمِهِ وَعَسْفِهِ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَكَأَنَّهُ قَدْ شَفَى مِنْ

غَيْظِهِ ، أَوْ أَطْفَأَ وَقْدَةً مِنَ الْحِقْدِ بَيْنَ جَنْبَيْهِ. فَأَدْرَكَتْ أَبَا بَكْرٍ الرَّحْمَةُ ، وَتَحَرَّكَتْ فِي نَفْسِهِ بَنَاتُ الْعَطْفِ وَالشَّفَقَةِ،

فَقَالَ لِأُمَيَّةِ : "حَتَّامَ تَتْرُكُ هَذَا الْمِسْكِيْنَ غَرَضًا لِعَذَابِكَ وَهَدَفًا لِبَلاَئِكَ؟. وَمَا حَظُّكَ مِنْ هَذَا الْأَنِيْنَ تَسْمَعُهُ؟. وَمِنَ

هَذِهِ الدُّمُوْعِ تَبْعَثُهَا مِنْ مآقِيْهَا؟. أَيُّ جُرْمٍ اقْتَرَفَهُ؟. وَأَيُّ إِثْمٍ ارْتَكَبَهُ؟".

قَالَ – أُمَيَّةُ– فِي صَلَفِهِ وَغُرُوْرِهِ ، وَعُجْبِهِ وَخُيَلاَئِهِ : " هَذَا عَبْدِي ، وَمِلْكُ يَمِيْنِي ، أُعَذِّبُهُ كَيْفَ أَشَاءُ ،

وَأُطْلِقُهُ مَتَى أَشَاءُ. وَمَا أَوْقِعُهُ فِي بَلاَئِهِ ، وَجُرَّ عَلَيْهِ أَسْبَابُ شَقَائِهِ، وَإِلاَّ أَنْتَ وَصَاحِبُكَ وَإِذَا كُنْتَ مُشْفِقًا بِهِ ، وَحَدَبًا

عَلَيْهِ ، فَدُوْنَكَهُ اشْتَرِه ، وَخَلِّصْهُ مِمَّا هُوَ فِيْهِ ، أَمَّا مَا دَامَ هَذَا الْعَبْدُ فِي مُلْكِي ، فَلَنْ أَرْفَعَ عَنْهُ الْعَذَابَ ، حَتَّى يَعُوْدَ

إِلَى اللاَّتَ وَالْعُزَّى".]

وَانْتَهَزَهَا أَبُوْ بَكرِ فُرْصَةً يُخَلِّصَ بِهَا بِلاَلاً مِنْ مِحْنَتِهِ ، وَيَرْفَعُ عَنْهُ عَذَابَ سَيِّدِهِ ، فَقَالَ لِأُمَيَّةِ : " قَدِ اشْتَرَيْتُهُ مِنْكَ،

وَلَيْسَ لَكَ عَلَيْهِ الآنَ مِنْ سَبِيْلٍ ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا بِلاَلُ فَقَدْ أَعْتَقْتُكَ حِسْبَةً لِلَّهِ وَاتِّجَارًا".

فَهَذَا أُمَيَّةُ وَهَذَا أَبُوْ بَكرِ ، هَذَا مُؤْمِنٌ وَذَاكَ كَافِرٌ ، وَهَذَا بِرٌّ وَذَاكَ فَاجِرٌ ، وَقَدْ سَجَّلَ اللهُ عَاقِبَتَهُمَا ، وَفَصَّلَ فِي

أَمْرِهِمَا :

فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى

يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

وَشَتَّانِ مَا بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ ، وَيَا بُعْدَ مَا بَيْنَ العَاقِبَتَيْنِ.

(٣) الإِسْرَاءُ

-1-

[أَمْضَى رَسُوْلُ اللهِ– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَيْلَةً فِي مَنْزِلِ أُمِّ هَانِءٍ وَبَعْدَ أَنْ فَرِغَ مِنْ شُئُوْنِ النَّاسِ وَصَلَّى العِشَاءَ الآخِرَةَ، حَتَّى إِذَا مَاكَادَ النَّهَارُ يَنْسَلِخُ مِنْ إِهَابِ اللَّيْلِ، وَتَفَتَّحَتِ ٱلأَعْيُنُ عَلَى تَبَاشِيْرِ الصَّبَاحِ. أُهِيْبَ بِهِ أَنْ يَسْتَيْقِظَ لِلصَّلاَةِ فَنَهَضَ، وَعَادَ بِالْوَضُوْءِ (٥) فَتَوَضَّأَ وَحَضَرَتِ الصَّلاَةُ فَصَلَّى، ثُمَّ دَعَا إِلَيْهِ أُمَّ هَانِءٍ لِيُحَدِّثَهَا، إِذْ هُوَ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَدْ شَهِدَ الْلَيْلَةَ أَمْرًا عَظِيْمًا، وَرَأَى مَشْهَدًا عَجِيْبًا. وَقَدِ اخْتَصَّهُ اللهُ بِفَضْلٍ، وَآثَرَهُ بِشَرَفٍ، مَا يَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ حَبَّاهُ أَحَدًا مِنْ قَبْلِ، أَوْ يُتَاحُ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، وَلاَ مُعَدَّل عِنَ ٱلإِفْضَاءِ بِهِ، وَالتَّحَدُّثِ عَنْهُ.

وَجَاءَتْ إِلَيْهِ أُمُّ هَانِءٍ – وَهِيَ بِنْتُ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَمِنْ شِيْعَتِهِ وَأَنْصَارِهِ، وَمِنْ مُؤَازِرِيْهِ وَأَعْوَانِهِ – فَقَالَ لَهَا : " يَا أُمَّ هَانِءٍ، لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَكِ الْعِشَاءَ الآخِرَةَ، كَمَا رَأَيْتِ بِهَذَا الْوَادِي، ثُمَّ جِئْتُ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ فَصَلَّيْتُ فِيْهِ، ثُمَّ قَدْ صَلَّيْتُ صَلاَةَ الْغَدَاةِ مَعَكُمُ ٱلآنَ كَمَا تَرَيْنَ ". وَأَعْلَنَهَا أَنَّهُ خَارِجُ ٱلآنَ لِيَلْقَى قُرَيْشًا، وَيُخْبِرَهَا بِمَا رَأَى، وَيَقُصَّ عَلَيْهِمْ مَا شَاهَدَ ، تَحَدُّثًا بِالنِّعْمَةِ، وَإِعْلاَنًا لِقُدْرَةِ اللهِ.]

---

٥ الوَضُوءُ : الماء الذي يتوضاء به

كَانَتْ أُمُّ هَانِىءٍ مُؤْمِنَةً قَوِيَّةَ ٱلْإِيْمَانِ، مُسْلِمَةً آكِدَ ٱلْإِسْلاَمِ، وَلِهَذَا لَمْ يُخَامِرْهَا شَكٌّ فِي صِدْقِ مَا رَأَى ، وَلَمْ يُدَاخِلْهَا رَيْبٌ فِي صِحَّةِ مَا رَوَى ، وَلَكِنَّهَا عَرَفَتْ قُرَيْشًا مَكْرَهُمْ وَإِيْذَاءَهُمْ ، وَشَاهَدَتْ قَوْمَهَا كَيْدَهُمْ وَتَكْذِيْبَهُمْ ، فَخَافَتْ عَلَى رَسُوْلِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنَ ٱلْكَيْدِ وَالتَّكْذِيْبِ ، وَأَشْفَقَتْ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْأَذَى وَٱلْإِسْتِهْزَاءِ ، فَأَخَذَتْ بِطَرْفِ رِدَائِهِ وَتَعَلَّقَتْ بِهِ مِنْ ثَوْبِهِ ، وَقَالَتْ : " إِنِّي أُذَكِّرُكَ اللهَ يَا ابْنَ عَمِّى ، أَنْ تَأْتِيَ قَوْمًا يُكَذِّبُوْنَ رِسَالَتَكَ ، وَيُنْكِرُوْنَ مَقَالَتَكَ ، فَأَخَافَ أَنْ يَسْطُوْا بِكَ ، وَتَمَنَّتْ مِنْ وَرَاءِ تَوَسُّلِهَا ، وَأَمَلَتْ مِنْ وَرَاءِ تَعَلُّقِهَا ، أَنْ يَكْتُمَ حَدِيْثَهُ ، وَأَنْ يَحْفَظَ مَا رَأَى مِنْ طَيَاتِ صَدْرِهِ ، حَدَبًا وَعَطَفًا ، وَخَوْفًا وَإِشْفَاقًا. وَلَكِنَّهُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَحْتَمِلُ رِسَالَةَ الْبَشَرِيَّةَ كُلَّهَا حَاضِرُهَا وَمُسْتَقْبَلَهَا ، فَكَيْفَ السَّبِيْلُ بِهِ إِلَى الْخَوْفِ؟ وَيَتَنَزَّلُ إِلَيْهِ أَمْرٌ عَظِيْمٌ فَكَيْفَ يَحُوْطُهُ بِالْكِتْمَانِ ، إِنَّهُ لاَ يَخَافُ الْكَيْدَ وَٱلْأَذَى، وَلاَيَخْشَى ٱلْإِسْتِهْزَاءَ وَالتَّكْذِيْبَ ، وَلِهَذَا جَذَبَ رِدَاءَهُ، وَجَمَعَ عَرَمَهُ وَخَرَجَ – ذَهَبَ رَسُوْلُ اللهِ غَيْرَ هَيَّابٍ يُحَدِّثُ قُرَيْشًا ، وَلَكِنْ أُمُّ هَانِىءٍ تَضَاعَفَ هَمُّهَا وَزَادَ وَجْلُهَا فَدَعَتْ إِلَيْهَا نَبْعَةَ (وَكَانَتْ جَارِيَتَهَا وَمَوْضِعُ سِرِّهَا وَثِقَتِهَا) – وَقَالَتْ : "انْطَلِقِي خَلْفَ رَسُوْلِ اللهِ ، وَاسْمَعِي مَا يَقُوْلُ ، وَتَعَالِي بَعْدَ ذَلِكَ حَدِّثِيْنِي مِمَّا سَيَكُوْنُ".

وَذَهَبَتْ نَبْعَةُ تَقُصَّ أَثَرَ الرَّسُوْلِ ، ثُمَّ عَادَتْ إِلَى سَيِّدَتِهَا وَقَالَتْ : لَقَدْ أَدْرَكْتُ رَسُوْلَ اللهِ فِي الْحَطِيْمِ ، بَيْنَ الْكَعْبَةِ

وَالْحَجَرِ ٱلأَسْوَدِ ، وَمَا أَنْ رَآهُ أَبُوْ جَهْلٍ حَتَّى ابْتَدَرَهُ قَائِلاً ، مُسْتَهْزِئًا كَعَادَتِهِ ، مُتَعَنِّتًا كَدَأْبِهِ : "هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ؟".

فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ : "نَعَمْ، أُسْرِيَ بِيَ الْلَيْلَةَ". قَالَ : "إِلَى أَيْنَ؟". قَالَ رَسُوْلُ اللهِ : "إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ".

قَالَ لَهُ : "ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانِيْنَا. قَالَ رَسُوْلُ اللهِ : "نَعَمْ". فَعَادَ أَبُوْ جَهْلٍ وَقَالَ : "أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ أَنْ

تُحَدِّثَهُمْ بِمَا حَدَّثْتَنِي؟". قَالَ رَسُوْلُ اللهِ : "نَعَمْ". وَانْطَلَقَ أَبُوْ جَهْلٍ يَعُدُّوْ كَالثَّوْرِ وَيُنَادِى : "يَا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَى".

-3-

[قَالَتْ أُمُّ هَانِءٍ : "اِجْلِسِي يَا نَبْعَةُ ، ثُمَّ أَتَمِّى الْحَدِيْثَ ، فَمَا أَرَى إِلاَّ أَنَّهُ سَيَطُوْلُ". وَجَلَسَتْ نَبْعَةُ ، وَاسْتَأْنَفَتِ

الْحَدِيْثَ ، وَقَالَتْ : "وَمَا رَاعَنِي إِلاَّ الْقَوْمَ يَنْثَالُوْنَ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ، وَيَنْسَلُّوْنَ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ ، يَقْدُمُهُمْ أَبُوْ جَهْلٍ حَتَّى

أَحَاطُوْا بِرَسُوْلِ اللهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَطَلَبَ أَبُوْ جَهْلٍ أَنْ يُخْبِرَهُمُ الرَّسُوْلُ بِمَا رَأَى ، وَحَسِبَ أَنَّهُ سَيُغَيِّرُ مِنْ مَقَالَتِهِ ،

أَوْ يُبَدِّلُ مِنْ خَبَرِهِ ، فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ : "إِنِّ أُسْرِيَ بِي إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ ، فَنَشَرَ لِي رَهْطٌ مِنَ ٱلأَنْبِيَاءِ ، مِنْهُمْ إِبْرَاهِيْمُ

وَمُوْسَى وَعِيْسَى ، وَصَلَّيْتُ بِهِمْ وَكَلَّمْتُهُمْ".

قَالَ أَبُوْ جَهْلٍ– مُمْعِنًا فِي هَزْئِهِ وَمَكْرِهِ –: "إِنْ كُنْتَ قَدْ رَأَيْتَهُمْ فَصِفْهُمْ" ، قَالَ رَسُوْلُ اللهِ : "أَمَّا عِيْسَى فَفَوْقَ الرَبْعَةِ وَدُوْنَ الطَّوِيْلِ تَعْلُوْهُ حُمْرَةً كَأَنَّمَا يَتَحَادَرُ عَنْ لِحْيَتِهِ الْجُمَّانِ ، وَأَمَّا مُوْسَى فَضَخْمٌ آدَمٌ ([٦]) طَوِيْلٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجالِ شَنُوْءَةٍ، وَأَمَّا إِبْرَاهِيْمُ فَإِنَّهُ وَاللهِ لَمْ أَرَ رَجُلاً أَشْبَهَ بِصَاحِبِكُمْ ، وَلاَ صَلاَبَتُكُم أَشْبَهَ بِهِ مِنْهُ".]

ثُمَّ عَادُوْا فَطَلَبُوْا مِنْهُ آيَةً تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ ذَلِكَ ، فَقَالَ : "آيَةُ ذَلِكَ أَنِّي مَرَرْتُ بِعِيْرِ[٧] بَنِي فُلاَنٍ بِوَادِى كَذَا وَكَذَا ، فَأَنْفَرَّهُمْ حَسُّ الدَّابَةِ ، فَنَدَّ لَهُمْ بَعِيْرٍ، فَدَلَلْتُهُمْ عَلَيْهِ وَأَنَا مُوَجَّهٌ إِلَى الشَّامِ ، ثُمَّ أَقْبِلْتُ حَتَّى إِذَا كُنْتَ بِضَجْنَانِ[٨] مَرَرْتُ بِعِيْرِ بَنِي فُلاَنٍ ، فَوَجَدْتُ الْقَوْمَ نِيَامًا ، وَلَهُمْ إِنَاءٌ فِيْهِ مَاءٌ وَقَد غَطُّوْا عَلَيْهِ بِشَيْءٍ ، فَكَشَفْتُ غِطَاءَهُ وَشَرِبْتُ مَا فِيْهِ ، ثُمَّ غَطَّيْتُهُ كَمَا كَانَ ، وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّ عِيْرَهُمْ تَصُوْبُ الآنَ مِنْ ثَنِيَّةِ التَّنْعِيْمِ الْبَيْضَاءِ ، وَيُقَدِّمُهَا جَمَلٌ أَوْرَقٌ[٩] ، عَلَيْهِ غَرَارَتَانِ : إِحْدَاهُمَا سَوْدَاءٌ وَالْأُخْرَى بُرْقَاءٌ[١٠]".

-4-

وَابْتَدَرُوْا إِلَى الثَّنِيَّةَ، فَوَجَدُوْا الْعِيْرَ كَمَا ذَكَرَ الرَّسُوْلُ ، يُقَدِّمُهَا جَمَلُ أَوْرَقُ كَمَا أُخْبِرَ. قَالَتْ أُمُّ هَانِءٍ :"هِيهْ يَا نَبْعَةُ،

[٦] آدم : أسود
[٧] العير : الإبل تحمل المِيْرَة
[٨] ضجنان : جبل بمكة
[٩] الأورق من الإبل : ما في لونه بياض إلى سواد.
[١٠] برقاء : كل شيء اجتمع فيه سواد وبياض.

وَمَاذَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْقَوْمِ بَعْدَ هَذِهِ الآيَاتِ البَيِّنَاتِ؟".

قَالَتْ : "لَقَدْ رَأَيْتُهُمْ لَوُّوْا رُؤُوْسَهُمْ ، وَغَمَزُوْا بِعُيُوْنِهِمْ ، ثُمَّ صَاحُوْا مُنْكِرِيْنَ بِمِلْءِ حَنَاجِرِهِمْ ، وَقَدِ اجْتَرَأَ الْمُطْعَمُ بْنُ عَدِى ، فَقَالَ : "كَانَ أَمْرُكَ قَبْلَ الْيَوْمَ أَمْرًا يَسِيْرًا ، فَإِذَا بِكَ الْيَوْمَ تَعَجُّبُ وَتُعْرَفُ . وَنَحْنُ نَضْرِبُ أَكْبَادَ ٱلإِبِلِ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ ، وَنَصْعُدُ شَهْرًا وَنَنْحَدِرُ شَهْرًا وَأَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ أَتَيْتَهُ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ. وَاللاَّتَ وَالعُزَّى لاَ أُصَدِّقُكَ ، وَلَقَدْ أَشْهَدُ أَنَّكَ كَاذِبٌ".

وَمَا وَصَلَتْ نَبْعَةُ الْحَدِيْثَ إِلَى هَذَا الْمِقْدَارِ ، حَتَّى عَلَتْ وَجْهَ أُمِّ هَانِءٍ سَحَابَةُ مِنَ الْهَمِّ ، وَتَحَيَّرَتْ فِي عَيْنَيْهَا دَمْعَةُ مِنَ ٱلإِشْفَاقِ.

وَلَكِنْ نَبْعَةُ اسْتَأْنَفَتْ حَدِيْثَهَا وَقَالَتْ : "أَمَّا أَبُوْ بَكْرٍ فَإِنَّهُ نَطَقَ مِنْ فَوْرِهِ، وَقَالَ لِرَسُوْلِ اللهِ : "أَشْهَدُ أَنَّكَ صَادِقٌ". فَقَالَ ابْنُ عَدِى : "أَتَصَدَّقَ أَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ وَعَادَ قَبْلَ أَن يُصْبَحَ؟". قَالَ أَبُوْ بَكْرٍ : "نَعَمْ ، إِنِّي لَأُصَدِّقَهُ فِيْمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ ، أَنَا أُصَدِّقُهُ فِي خَبَرِ السَّمَاءِ فِي غُدُوِّهِ وَرَوَاحِهِ، أَفَكَذَّبُهُ فِي إِكْرَامِ اللهِ لَهُ بِأَنْ يَنْقِلَهُ مَسِيْرَةَ

شَهْرٍ؟". وَتَبِعَ الْمُسْلِمُوْنَ أَبَا بَكْرٍ وَلَكِنْ وَاأَسَفَاه ، لَقَدِ ارْتَدَّ نَفَرٌ قَلِيْلٌ مِنْهُمْ ، لَمْ يَتَّسِعْ عُقُوْلُهُمْ لِأَنْ تُدْرِكَ قُدْرَةَ اللهِ ، وَلَمْ

تَسْتَرُوْحِ قُلُوْبُهُمْ لِمَا اخْتَصَّ بِهِ رَسُوْلُ اللهِ.

قَالَتْ أُمُّ هَانِءٍ: "لاَ بَأْسَ عَلَى دِيْنِ رَسُوْلِ اللهِ مِنْ هَؤُلاَءِ النَّفَرِ الَّذِيْنَ ارْتَدُّوْا ، فَلَعَلَّ مِنَ الْخَيْرِ أَنْ يَبْتَعِدُوْا عَنْ

صُفُوْفِ الْمُسْلِمِيْنَ ، وَيَمْحُوْا مِنْ صَحِيْفَةِ الْمُؤْمِنِيْنَ ، إِذْ لاَ خَيْرَ فِي ضَعِيْفٍ مُتَرَدِّدٍ وَلاَ نَفْعَ لَهُمْ فِي مُذَبْذَبٍ مُضْطَرِبٍ".

(٤) خَادِمُ أُمِّهِ

-1-

[تَعَوَّدَ النَّاسُ مِنْ أَهْلِ الكُوْفَةِ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ لِلإِسْلاَمِ أَنْ يَرَوْا رَجُلاً يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ بَيْنَ حِيْنٍ وَحِيْنٍ ، فَمَا

أَنْ يَرَوْهُ ، حَتَّى يَأْخُذُوْهُ بِعُيُوْنِهِمْ ، لَيْسَ ذَلِكَ عَنْ رِفْعَةٍ فِي الْمَكَانَةِ ، أَوْ عُلُوٍّ فِي الرُّتْبَةِ !. فَقَدْ كَانَ رَحِمَهُ اللهُ مِنْ

أَخْلاَطِ النَّاسِ الْمَغْمُوْرِيْنَ الَّذِيْنَ لاَيُؤْبَهُ لَهُمْ إِذَا غَابُوْا ! وَإِنَّمَا كَانُوْا يَأْخُذُوْنَهُ بِأَبْصَارِهِمْ ، وَإِزْرَاءً بِشَأْنِهِ ، وَسُخْرِيَّةً مِنْهُ ،

لِخُشُوْنَةِ مَلْبَسِهِ ، وَرُثَاثَةِ حَالِهِ! كَانَ ذَا طَمَرَيْنِ مُرَقَّعَيْنِ ، وَأَحَدُهُمَا مِنْ صُوْفٍ يَتَّزِرُ بِهِ ، وَكَانَ يَمْشِى ضَارِبًا بِذَقْنِهِ إِلَى

صَدْرِهِ ، رَامِيًا بِبَصَرِهِ إِلَى مَوْضِعِ سُجُوْدِهِ ، وَاضِعًا يَمِيْنَهُ عَلَى شِمَالِهِ ، كَأَنَّهُ فِي الصَّلاَةِ ، وَكَثِيْرًا مَا كَانَ يَقْتَاتُ هُوَ وَأُمُّهُ

مِمَّا يَلْتَقِطُ مِنْ النَّوَى.

هُوَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِ التَّابِعِيْنَ ، جَلِيْلُ الْقَدْرِ ، عَظِيْمُ الْمَكَانَةِ عِنْدَ اللهِ ، وَهُوَ زَاهِدٌ مِنْ أَكَابِرِ زُهَادِهِمْ ،

وَأَتْقَاهُمْ ، وَأَوْرَعَهُمْ ، وَمِنْ أَشَدِّهِمْ اسْتِمْسَاكًا بِالْإِسْلاَمِ، هُوَ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ الْقَرْنِيّ الْمُرَادِى ، اليَمَنِى مَنْشَأً ، الكُوْفِى

مَوْطِنًا ،] أَدْرَكَ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَاهُ عَلَى أَرْجَحِ الرِّوَايَاتِ ، إِذْ كَانَ مَشْغُوْلاً بِأُمِّهِ ، يَخْدِمُهَا ،

وَيُبِرُّهَا ، وَيَقُوْمُ عَلَى شُئُوْنِهَا كَأَحْسَنِ مَا يَكُوْنُ الْقِيَامُ ، يَصْبَحُ فَيُقَبِّلُ يَدَهَا ، وَيَلْثَمُ قَدَمَهَا ، وَيَتَمَرَّغُ تَحْتَ قَدَمَيْهَا حَتَّى

لَكَأَنَّهُ يَتَصَوَّرُ أَنَّهُ يَتَمَرَّغُ فِي رَوْضَةِ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ !! بَلَغَهُ أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " الْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الْأُمَّهَاتِ " ، قِيْلَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ : أَنَّهُ رَأَى النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَاجْتَمَعَ بِهِ مَرَّاتٍ ، وَإِنَّهُ شَهِدَ مَعَهُ غَزْوَةَ أُحُدٍ ،

وَقَالَ : وَاللهِ مَا كُسِرَتْ رُبَاعِيَّتُهُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حَتَّى كُسِرَتْ رُبَاعِيَّتِي ، وَلاَ شُجَّ وَجْهُهُ حَتَّى شُجَّ وَجْهِيْ وَلاَ وُطِىءَ ظَهْرُهُ حَتَّى وُطِىءَ ظَهْرِيْ.

وَكَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَثِيْرُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوْفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالنُّصْحِ لِلَّهِ وَلِرَسُوْلِهِ وَلِعَامَةِ الْمُسْلِمِيْنَ ، وَكَانَ كُلَّمَا أَمَرَ بِمَعْرُوْفٍ أَوْ نَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ ، وَرَمَاهُ النَّاسُ بِالْعَظَائِمِ ، وَنَسَبُوْهُ إِلَى الْجُنُوْنِ ، وَوَجَدُوْا عَلَى ذَلِكَ أَعْوَانًا مِنَ الْفَاسِقِيْنَ فَلْنَدْعُهُمْ فِي عِمَايَتِهِمْ وَلْنَذْكُرُ مَا لِهَذَا التَّابِعِي الْجَلِيْلِ ، أَوْ إِنْ شِئْتَ أَنْ تَقُوْلَ الصَّحَابِيُّ العَظِيْمُ ، مِنْ كَرِيْمِ الْمَنْزِلَةِ عِنْدَ اللهِ . وَلَقَدْ أُوَيْس فِيْمَنْ وَفَدَ مِنَ النَّاسِ إِلَى أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ عُمَرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : أَنْتَ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ . قَالَ : أَنْتَ مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرْنٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ. قَالَ كَانَ بِكَ بَرَصٌ فَبَرَأْتُ مِنْهُ إِلاَّ مَوْضِعُ الدِّرْهَمِ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : وَلَكَ وَالِدَةٌ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ عُمَرُ : سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ – يَقُوْلُ: " يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرِ مِنْ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ ، وَكَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلاَّ مَوْضِعِ دِرْهَمِ ، لَهُ وَالِدَةِ

هُوَ بِهَا بِرٌّ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ ". قَالَ عُمَرُ : فَاسْتَغْفِرْ لِي يَا أُوَيْسُ. قَالَ:

فَاسْتَغْفِرْ لِي يَا أُوَيْسُ. قَالَ : فَاسْتَغْفَرَ لَهُ . فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أَيْنَ تُرِيْدُ ؟ قَالَ : الْكُوْفَةُ . قَالَ : أَلاَ أَكْتُبُ إِلَى

عَامِلِهَا ؟ قَالَ أُوَيْسُ : أَكُوْنَ فِي غُبَرَاءِ النَّاسِ خَيْرٌ لِي .

-2-

[وَرَوَى أَبُوْ نُصْرَةِ عَنِ ابْنِ جَابِرٍ قَالَ : كُنَّا نَجْلِسُ إِلَى حَلَقَةِ رَجُلٍ مُحَدِّثٍ بِالْكُوْفَةِ ، يَعِظُ النَّاسَ وَيُرْشِدُهُمْ

وَيُبَيِّنُ لَهُمْ ، وَكَانَ إِذَا فَرِغَ ذَلِكَ الْمُحَدِّثُ مِنْ حَدِيْثِهِ ، تَفَرَّقَ الْقَوْمُ ، وَيَبْقَى رَهْطٌ مِنْهُمْ ، فِيْهِمْ رَجُلٌ لاَ أَعْرِفُهُ،

وَلَكِنَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِكَلاَمِ مَا سَمِعْتُ أَحَدًا يَتَكَلَّمُ بِمِثْلِهِ قَطُّ ، فَأَعْجَبَنِي وَأَحْبَبْتُهُ، فَفَقَدْتُهُ أَيَّامًا ، فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي :

أَتَعْرِفُوْنَ رَجُلاً كَانَ يُجَالِسُنَا ، مِنْ صِفَتِهِ كَذَا وَكَذَا ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : أَنَا أَعْرِفُهُ ، ذَاكَ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرِ الْقَرْنِي

قُلْتُ : أَوَ تَعْرِفُ دَارَهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ . فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ حَتَّى جِئْتُ حُجْرَتَهُ، فَخَرَجَ إِلَيَّ فَقُلْتُ : يَا أَخِي مَا حَبَسَكَ عَنَّا

؟ قَالَ : مَا تَرَى ! (وَكَانَ عَارِيًا إِلاَّ مِمَّا يَسْتُرُ عَوْرَتَهُ) قَالَ : وَكَانَ أَصْحَابِي يَسْخَرُوْنَ مِنْهُ وَيُؤْذُوْنَهُ ، قَالَ : فَقُلْتُ لَهُ

: خُذْ هَذَا الْبُرْدَ فَالْبَسْهُ . قَالَ : لاَ تَفْعَلْ ، إِنَّهُمْ يُؤْذُوْنَنِي ! قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى لَبِسَهُ ، ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْهِمْ. فَقَالُوْا :

تُرَى مَنْ خَدَعَ عَنْ بُرْدِهِ هَذَا ؟ فَجَاءَ أُوَيْسُ فَوَضَعَهُ وَقَالَ : قَدْ رَأَيْتُ ؟ قَالَ : فَأَتَيْتُ الْمَجْلِسَ. فَقُلْتُ : مَا تُرِيْدُوْنَ

مِنْ هَذَا الرَّجُلِ ؟ قَدْ آذَيْتُمُوْهُ الرَّجُلَ يَعْرَى مَرَّةً وَيَكْسِى مَرَّةً ، وَأَخَذْتُهُمْ بِلِسَانِي .]

ثُمَّ كَانَ أَنْ وَفَدَ أَهْلُ الْكُوْفَةِ يَوْمًا إِلَى أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ عُمَرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وَفِيْهِمْ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ يُؤْذِى أُوَيْسًا وَيَسْخَرُ مِنْهُ . قَالَ عُمَرُ : أَهَهُنَا رَجُلٌ مِنَ الْقَرْنِيِّيْنَ ، فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ ، فَسَأَلَهُ عُمَرُ عَنْ أُوَيْسٍ ، ثُمَّ قَالَ لِلرَّجُلِ :

سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ ــ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — يَقُوْلُ : إِنَّ رَجُلاً يَأْتِيْكُمْ مِنَ الْيَمَنِ ، يُقَالُ لَهُ أُوَيْسٌ ، لاَ يَدَعُ بِالْيَمَنِ غَيْرَ أُمٍّ هُوَ بِهَا بِرٌّ ، وَكَانَ بِهِ بَرَصٌ فَدَعَا اللهَ فَأَذْهَبَ عَنْهُ ، إِلاَّ مِثْلُ الدِّيْنَارِ أَوِ الدِّرْهَمِ ، فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ فَمُرُوْهُ فَلْيَسْتَغْفِرْلَكُمْ .

-3-

وَعَادَ الرَّجُلُ فَأَقْبَلَ حَتَّى أَتَى أُوَيْسًا ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ مُسَلِّمًا وَمُحَيِّيًا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ عَلَى أَهْلِهِ فَقَالَ أُوَيْسُ : مَا هَذِهِ بِعَادَتِكَ ، قَالَ : سَمِعْتُ عُمَرَ يَقُوْلُ كَذَا وَكَذَا ، فَاسْتَغْفِرْ لِي . قَالَ : لاَ أَفْعَلُ حَتَّى تَجْعَلَ لِي عَلَيْكَ أَلاَّ تَسْخَرُ مِنِّي وَلاَ تُؤْذِيْنِي ، وَلاَ تُذَكِّرُ قَوْلَ عُمَرِ لأَحَدٍ ، فَجَعَلَهُ هَذَا الْعَهْدَ ، فَاسْتَغْفِرَ لَهُ.

وَكَانَ عُمَرُ إِذَا أَتَى أَمْدَادُ الْيَمَنِ سَأَلَهُمْ : أَفِيْكُمْ أُوَيْسُ ابْنُ عَامِرٍ ، فَإِذَا رَآهُ أَعَادَ عَلَيْهِ حَدِيْثَ رَسُوْلِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ثُمَّ يَطْلُبُ إِلَيْهِ أَنْ يَسْتَغْفِرَلَهُ .

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ مِنَ الْمَيْسُوْرِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ مُؤْمِنٍ ، أَنْ يَكُوْنَ مِثْلَ أُوَيْسٍ ، مُسْتَجَابُ الدُّعَاءِ مَقْبُوْلُ الشَّفَاعَةِ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ ، وَوَسِيْلَةُ ذَلِكَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ ، وَالْوُقُوْفُ عِنْدَ أَوَامِرِ الدِّيْنِ وَنَوَاهِيْهِ ، مِنْ غَيْرِ تَهَاوُنٍ أَوِ انْحِرَافٍ فَمَنْ يَعْمَلُ عَمَلَهُ يَكُنْ مِثْلَهُ ، وَمَنْ يَزِدُ يَكُنْ خَيْرًا مِنْهُ ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ .

(٥) الرُّوْحُ وَالْقِيَمُ الرُّوْحِيَّةِ

-1-

الرُّوْحُ أَمْرٌ مِنَ اللهِ كَمَا يُفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى) وَقَدْ نَسَبَهَا اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ حَيْثُ يَقُوْلُ سُبْحَانَهُ :(ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ) وَحَيْثُ يَقُوْلُ : (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾) وَمِنْ ذَلِكَ نُدْرِكُ أَنَّ شَرَفَ الإِنْسَانِ كَانَ وَلاَ يَزَالُ بِهَذَا الْجَانِبِ الرُّوْحِي الَّذِي يَصِلُهُ بِاللهِ ، وَيَمُدُّهُ بِهُدَاهُ ، وَقَدْ زَوَّدَهُ اللهُ مَعَ ذَلِكَ بِالْعَقْلِ ، وَبِالإِسْتِعْدَادِ لِمَا لاَ يَتَنَاهَى مِنَ الْمَعْلُوْمَاتِ ، وَسِوَاهُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيْمٍ ، فَكَانَ لِذَلِكَ فِي الْمَوْضِعِ الْكَرِيْمِ الَّذِي يُفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: (۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

فَإِذَا لَمْ يَشْعُرْ بِقِيْمَتِهِ وَكَرَامَتِهِ ، أَوْ تَجَاهَلَ النِّعَمِ الَّتِي أَسْبَغَهَا اللهُ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَقْدِرْهَا قَدْرُهَا ، وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهَا فِيْمَا يَنْفَعُهُ ، وَيَرْفَعُهُ وَصَارَ كَمَا يَقُوْلُ اللهُ فِيْهِ : (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ

أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ)

عَلَى هَذَا الأَسَاسِ كَانَ الْمِقْيَاسُ الَّذِي يَتَفَاضَلُ النَّاسُ هُوَ التَّقْوَى كَمَا يُفْهَمُ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى : (إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ

عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ)

-2-

وَكَلِمَةُ التَّقْوَى تَسِعُ كُلَّ قِيَمِ الرُّوْحِيَّةِ الَّتِي تَطِيْبُ بِهَا نَفْسُ الإِنْسَانِ ، وَتَعَظَّمُ بِهَا مَكَانَتُهُ ، وَتَسْتَقِيْمُ بِهَا حَيَاتُهُ ،

وَتَصْلُحُ بِهَا دُنْيَاهُ وَآخِرَتُهُ ، فَالإِيْمَانُ بِاللهِ ، وَالتَّحَرُّرُ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ ، وَالْخَوْفُ مِنْ عَذَابِهِ ، وَالْطَمْعُ فِي ثَوَابِهِ ، وَالثِّقَةِ بَعَدْلِهِ

وَفَضْلِهِ ، وَالْعَمَلُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيْلِهِ ، وَالإِعْتِصَامُ بِحَبْلِهِ ، وَكُلُّ مَا أَنْزَلَ بِهِ كُتُبُهُ ، وَأَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهِ قِيَمَ ثَابِتَةَ

ثَبَاتَ الْحَقِّ ، خَالِدَةَ خُلُوْدَ الرُّوْحِ ، يَجِبُ الحِرْصُ عَلَيْهَا ، وَالتَّمَسُّكُ بِهَا ، وَالْعَمَلُ عَلَى هُدَاهَا ، لأَنَّهَا السَّبِيْلُ إِلَى الْخَيْرِ ،

وَالنُّصْرُ فِي الدُّنْيَا ، وَالْفَوْزُ وَالنَّعِيْمُ فِي الآخِرَةِ ، وَذَلِكَ بَعْضُ مَا يُفْهَمُ مِنْ قَوْلِ اللهِ سُبْحَانِهِ : (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝)

وَقَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾)

[وَقَدْ أَثْبَتَ وَاقِعُ الْحَيَاةِ ذَلِكَ فِيْمَا شَهِدَهُ النَّاسُ مِنْ صِرَاعٍ بَيْنَ الْحَقِّ وَالبَاطِلِ ، وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَالْهُدَى وَالضَّلاَلِ ، فَكَانَ النَّصْرُ دَائِمًا مَعَ الْمُؤْمِنِيْنِ، وَمَعَ الْحَقِّ الَّذِي يَدِيْنُوْنَ بِهِ ، وَيُدَافِعُوْنَ عَنْهُ ، وَكَانَ الْخِزْيُ دَائِمًا مَصِيْرِ الْكَافِرِيْنَ ، وَأَهْلِ الْغَيِّ وَالضَّلاَلِ وَأَوْضَحُ الأَمْثِلَةِ عَلَى ذَلِكَ مَعْرَكَةِ الإِسْلاَمِ الكُبْرَى الَّتِي غَيَّرَتْ مَجْرَى التَّارِيْخِ ، وَأَنْفَذَتْ كَرَامَةُ الإِنْسَانِ مِنَ الوَثَنِيَّةِ الضَّالَةِ العُمْيَاءِ الَّتِي سَادَتِ الدُّنْيَا قَبْلِ ظُهُوْرِ نُوْرِهِ ، فَقَدْ كَانَ ثَوْرَةُ عَلَى الَّذِيْنَ يَعْبُدُوْنَ الأَصْنَمَ ، وَعَلَى الَّذِيْنَ يَعْبُدُوْنَ النَّارَ ، وَعَلَى الَّذِيْنَ يَعْبُدُوْنَ الْمَلاَئِكَةَ ، وَعَلَى الَّذِيْنَ يَعْبُدُوْنَ الْجِنَّ ، وَعَلَى الَّذِيْنَ يَعْبُدُوْنَ الْكَوَاكِبَ ، وَعَلَى الَّذِيْنَ اتَّخَذُوْا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُوْنِ اللهِ وَالْمَسِيْحِ ابْنِ مَرْيَمَ ثُمَّ انْتَصَرَتْ هَذِهِ الثَّوْرَةُ، وَأَشْرَقَ بِهَا نُوْرُ اللهِ فِي كُلِّ جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ الأَرْضِ ، وَتَحَقَّقَ وَعْدُ اللهِ لِلَّذِيْنَ آمَنُوْا فَاسْتَخْلَفَهُمْ فِي الأَرْضِ ، وَمَكَّنَ لَهُمْ دِيْنَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَبَدَّلَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ

أَمْنًا .]

-3-

وَلِكَى نُدْرِكُ مَاكَانَ عَلَيْهِ العَرَبُ قَبْلَ الإِسْلاَمِ ، وَنَعْرِفُ الْمَبَادِىءَ وَالقِيَمَ الَّتِى اجْتَمَعُوْا عَلَيْهَا بَعْدَ فِرْقَةٍ ، وَعَزُّوا بِهَا بَعْدَ ذُلَّةٍ ، وَقُوِّيَتْ بِهَا شَوْكَتُهُمْ بَعْدَ ضَعْفٍ نَذْكُرُ مَا ذَكَرَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِى طَالِبٍ لِلنَّجَاشِى فِي الْحَبَشَةِ حَيْثُ قَالَ : كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِى الفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ ، وَنُسِىءُ الْجِوَارَ ، وَيَأْكُلُ القَوِيَّ مِنَّا الضَّعِيْفَ ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُوْلاً مِنَّا ، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدُهُ ، وَنَخْلَعُ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُوْنِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ الوَثَانِ ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيْثِ ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ ، وَنَهَانَا عَنِ الفَوَاحِشِ ، وَقَوْلِ الزُّوْرِ ، وَأَكْلِ مَالِ اليَتِيْمِ ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ ، وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ.

هَذَا مَا كَانَ الْعَرَبُ قَبْلَ الإِسْلاَمِ ، وَهَذِهِ هِيَ بَعْضُ الْمَبَادِىءِ وَالْقِيَمِ الَّتِى جَاءَ بِهَا، وَدَعَا إِلَيْهَا ، وَقَدْ تَلَقَّاهَا النَّبِيُّ ﷺ بِمَا عُرِفَ عَنْهُ مِنْ حِرْصٍ عَلَى هِدَايَةِ قَوْمِهِ ، وَإِخْرَاجِ النَّاسِ جَمِيْعًا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوْرِ ، وَاحْتَمَلَ فِي سَبِيْلِ تَبْلِيْغِهَا

وَأَخَذَ النَّاسُ

بِهَا مَا تَنُوءُ بِحَمْلِهِ الْجِبَالُ ، وَمَعَ كَثْرَةِ مَا بَذَلَ ، وَقَسْوَةِ مَا احْتَمَلَ لَمْ يُعْرَفْ عَنْهُ فِي طَوْرٍ مِنْ أَطْوَارِ حَيَاتِهِ مَوْقِفُ ضَعْفٍ أَوْ خَوْفٍ ، بَلْ لَقَدْ وَقَفَ أَمَامَ عَمِّهِ وَهُوَ يُحَذِّرُهُ مِنْ قَوْمِهِ ، وَمِنْ كُلِّ الْقُوَى الْمُتَأَلِّبَةِ عَلَيْهِ الْمُتَرَبِّصَةِ بِهِ وَرَاءَ قَوْمِهِ.

فَقَالَ : " يَا عَمِّ وَاللهِ لَوْ وَضَعُوْا الشَّمْسَ فِي يَمِيْنِي ، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى يَظْهَرَهُ اللهُ أَوْ أَهْلَكُ فِيْهِ "، ثُمَّ كَانَ الْمُؤْمِنُوْنَ بِهِ ، وَبِالْقِيَمِ الَّتِي يَحْمِلُهَا يَعْتَقِدُوْنَ أَنَّهُمْ ((لاَ يُصِيْبَهُمْ ظَمْأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيْلِ اللهِ وَلاَ يَطِئُوْنَ مَوْطِئًا يَغِيْظُ الكُفَّار وَلاَ يَنَالُوْنَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلُ صَالِحٌ))

وَبِهَذَا الإِيْمَانُ, وَهَذِهِ القِيَمُ انْتَقَلَتْ الأُمَّةُ مِنَ الْحَالِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا قَبْلَ الإِسْلاَمِ إِلَى الْمُسْتَوَى الرَّفِيْعِ الَّذِي يُفْهَمُ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى فِيْهَا : ((كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)).

فَالْقِيَمُ الرُّوْحِيَّةُ لَمْ تَكُنْ – كَمَا يَتَوَهَّمُ البَعْضُ – مَعَانِي سَلْبِيَّةً ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ قَوِيَّ إِيْجَابِيَّةً ، تَدْفَعُ بِنَشَاطِ الْمُؤْمِنِيْنَ فِي كُلِّ اتِّجَاهِ صَالِحِ ، وَتَحْفَزُهُمْ إِلَى كُلِّ عَمَلٍ مَحْمُوْدٍ ، وَتَصِلُ جُهُوْدُهُمْ وَجِهَادُهُمْ بِاللهِ وَتَمُدُّ وُجُوْدُهُمْ إِلَى حَيَاةٍ أَعْظَمٌ وَأَكْرَمٌ .

يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗا ...

يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩

(٦) مِنَ الشُّيُوْخِ إِلَى الشُّبَّانِ

-1-

[لاَ نَسْتَطِيْعُ أَنْ نُنْكِرَ عَلَيْكُمْ – مَعْشَرَ الْأَبْنَاءِ – أَنَّ شَبَابَكُمْ أَعْظَمُ قُوَّةً وَنَشَاطًا، وَأَبْعَدُ هِمَّةً، وَأَقْوَى عَزِيْمَةً – مِنْ شَيْخُوْخَتِنَا ، وَأَنَّ أَيْدِيَنَا الشَّاحِبَةَ الْمَعْرُوْقَةَ لَمْ تَعُدْ تَسْتَطِيْعُ أَنْ تَصِلَ إِلَى مَا تَصِلُ إِلَيْهِ أَيْدِيْكُمُ الْفَتِيَّةُ الْمُقْتَدِرَةُ وَأَنَّ آرَاءَكُمْ وَأَفْكَارَكُمْ وَجَمِيْعَ تَصَوُّرَاتِكُمْ وَآمَالَكُمُ الَّتِي تَتَكَوَّنُ بِهَا شُبُوْبَتُكُمْ أَكْثَرُ حِدَّةً وَحَرَارَةً ، وَأَبْعَدُ غَوْرًا وَعُمْقًا – مِنْ آرَائِنَا وَتَصَوُّرَاتِنَا .

وَلَكِنِ الَّذِي نُنْكِرُهُ عَلَيْكُمْ ، وَنُعْتِبُ عَلَيْكُمْ فِيْهِ أَشَدَّ الْعَتْبِ ، هُوَ زِرَايَتُكُمْ عَلَيْنَا ، وَاحْتِقَارُكُمْ لَنَا ، وَرَمْيُكُم إِيَّانَا بِالْجُمُودِ مَرَّةً ، وَالْخَوْفِ مَرَّةً أُخْرَى ، كُلَّمَا اخْتَلَفْنَا مَعَكُمْ .

كَمَا أَنَّنَا نَنْعِى عَلَيْكُم كِبْرِيَاءَكُم وَخُيَلاَءَكُم ، وَاعْتِدَادَكُم بِأَنفُسِكُم هَذَا الإِعْتِدَادَ العَظِيمَ الَّذِى يُخَيِّلُ إِلَيكُم مَعَهُ أَنَّ هَذِهِ الأَلْوَانَ الجَمِيْلَةَ الَّتِي تَتَلَوَّنُ بِهَا حَيَاتُكُمُ الحَاضِرَةُ – إِنَّمَا هِىَ خَاصَّةٌ بِكُم ، وَوَقْفٌ عَلَيكُم ، لَم تَمُرْ بِعَصرٍ غَيْرِ عَصرِكُم وَلَم يَزْهُ بِهَا شَبَابُ غَيْرِ شَبَابِكُم ، وَأَنَّكُم أَنتُم أَصحَابُ الفَضلِ الأَوَّلِ فِى ابْتِكَارِهَا .]

وَلَو أَنَّكُمُ اسْتَطَعتُم أَن تَحمِلُوا أَنفُسَكُم عَلَى الرَّوِيَّةِ وَالأَنَاةِ ، وَأَن تَنتَقِلُوا بِأَنظَارِكُم مِنَ الحَاضِرِ إِلَى المَاضِى – وَإِن

لَم يَكُن ذَلِكَ مِن طَبِيعَةِ الشَّبَابِ وَلاَ مِن خَصَائِصِهِ – لَعَلِمتُم أَنَّ هَذَا العَهدَ الَّذِى يَمُرُّ بِكُمُ الْيَومُ ، وَالَّذِى تُفَاخِرُونَنَا بِهِ ،

وَتَدلُونَ عَلَينَا بِأَحلاَمِهِ وَأَمَانِيهِ وَتَصَوُّرَاتِهِ وَخَيَالاَتِهِ – قَد مَرَّ بِنَا مِثلُهُ فِى زَمَانِنَا ، فَقَد كَانَ لَنَا شَبَابٌ مِثلَ شَبَابِكُم، نَتَصَوَّرُ فِيهِ كَمَا تَتَصَوَّرُونَ ، نُفَكِّرُ كَمَا تُفَكِّرُونَ ، وَنُرَدِّدُ فِى أَنفُسِنَا وَأَحَادِيثِنَا وَعَلَى أَسِلاَّتِ أَقلاَمِنَا جَمِيعَ هَذِهِ الآرَاءِ وَالأَفكَارِ الَّتِى تُرَدِّدُونَهَا الْيَومَ ، حَتَّى إِنْطَوَى ذَلِكَ العَهدُ ، وَزَالَت مَعَالِمُهُ ، وَهَدَأَت عَلَى إِثرِهِ تِلكَ الثَّورَةُ النَّفسِيَّةُ الَّتِى كَانَت تَعتَرِكُ بَينَ جَوَانِحِنَا.

-2-

وَدَخَلنَا غَمَارَ الْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ : حَيَاةِ الْجَدِّ وَالعَمَلِ ، وَالنَّظَرِ وَالتَّأَمُّلِ ، وَالْخِبْرَةِ وَالتَّجرِبَةِ – فَاستَطَعنَا أَن نَرجِعَ إِلَى نُفُوسِنَا، وَنَثُوبُ إِلَى رُشدِنَا ، وَأَن نَهبِطَ بِهُدُوءٍ وَسُكُونٍ إِلَى أَعمَاقِ قُلُوبِنَا، وَنَستَعرِضَ تِلكَ الآرَاءَ وَالأَفكَارَ ، وَالأَحلاَمَ وَالأَمَالَ ، بِإِمعَانٍ وَتدقِيقٍ ، فَاستَطَعنَا أَن نُمَيِّزَ صَالِحَهَا مِن فَاسِدِهَا ، وَصَادِقَهَا مِن كَاذِبِهَا وَمَعقُولَهَا مِن مَوهُومِهَا ، وَأَن نُقَلِّبَ الأَشْيَاءَ عَلَى جَمِيعِ وُجُوهِهَا ، وَنَرَى وُجُوهَ الْحُسنِ وَوُجُوهَ القُبحِ فِيهَا ، وَنُوَازِنَ بَينَ هَذِهِ وَتِلكَ ، فَأَخَذنَا بِمَا أَرَبَّت حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ ، وَاطْرَحنَا مَا زَادَت سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ.

فَلاَ فَضلَ لَكُم قَطٌّ فِى هَذَا الَّذِى تَزعُمُونَ أَنَّ لَكُمُ الْفَضلُ فِيهِ وَحدَكُم مِن دُونِ النَّاسِ جَمِيعًا ، وَإِنَّمَا الفَضلُ

لِلشَّبَابِ وَمَزَاجِهِ وَطَبِيعَتِهِ وَحِدَّتِهِ. وَلاَ عَلاَقَةُ لِلْعِلمِ وَالجَهلِ وَالذَّكَاءِ وَالغَبَاوَةِ وَالتَّقَدُّمِ وَالتَّأَخُّرِ بِشَىءٍ مِن ذَلِكَ.

وَلِلشَّبَابِ خَصَائِصٌ كَثِيرَةٌ ، وَصِفَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ ، أَبرَزُ صِفَاتِهِ قَصرُ النَّظَرِ، وَسُرعَةُ الْحُكمِ ، وَالعَجزُ عَن إِحكَامِ

الصِّلَةِ بَينَ أَدوَارِ الزَّمَانِ الثَّلاَثَةِ : مَاضِيهِ ، وَحَاضِرِهِ ، وَمُستَقبَلِهِ، فَهُوَ لاَ يَستَطِيعُ أَن يَتَصَوَّرَ – تَصَوُّرًا ثَابِتًا مَتِينَا – أَنَّ

الْمَاضِى أَسَاسُ الْحَاضِرِ، وَأَنَّهُ مَنبَعُ وُجُودِهِ : وَلاَ يَشرُقُ إِلاَّ مِن مَطلَعِهِ ، وَلاَ يَنبُتُ إِلاَّ مِن تُربَتِهِ ، وَأَنَّ الْمُستَقبَلَ بِيَدِ

الطَّبِيعَةِ القَاسِيَةِ وَقَوَانِينِهَا الصَّارِمَةِ . وَلَيسَ شَىءٌ أَقرَبَ إِلَيهِ مِن أَن يَتَصَوَّرَ أَنَّ فِى اسْتِطَاعَتِهِ أَن يَمحُو بِيَدِهِ فِى لَحظَةٍ وَاحِدَةٍ

وَجهَ الكَونِ بِأَرضِهِ وَسَمَائِهِ ، ثُمَّ يَخلُقُهُ خَلقًا جَدِيدًا عَلَى الصُّورَةِ الَّتِى يُرِيدُهَا وَيَتَصَوَّرُهَا ، وَأَنَّ فِى إِمكَانِهِ أَن يُحِيلَ التُّربُ

أَموَاهًا وَالأَمْوَاهُ تُربًا ، يَحجُبُ بِيَدِهِ وَجهَ الشَّمسِ فَلاَ يَنبَعِثُ لَهَا شِعَاعٌ إِلاَّ بِإِرَادَتِهِ ، وَأَن يَرغَمَهَا – مَتَى أَرَادَ – أَن تُمَزِّقَ

حِجَابَ اللَّيلِ، وَتَبرَزَ فِى سَمَائِهِ.

وَلاَيَزَالُ يَتَخَبَّطَ فِى أَمثَالِ هَذِهِ التَّصَوُّرَاتِ وَالأَحلاَمِ الَّتِى لاَ فَائِدَةَ فِيهَا وَلاَ نَتِيجَةَ لَهَا ، حَتَّى تَطلُعَ فِى رَأسِهِ أَوَّلَ

طَلِيعَةِ مِن طَلاَئِعِ الشَّيخُوخَةِ : فَتَهْدَأُ ثَوْرَتُهُ ، وَتَفْتَرُّ حِدَّتُهُ . ثُمَّ لاَ يَلْبِثُ أَنْ يَسْقُطَ جَاثِيًا بَيْنَ يَدَيِ الْقُوَّةِ الإِلَهِيَّةِ ، وَالقُوَّةِ

الطَّبِيعِيَّةِ ، مُعتَرَفًا بِعَجزِهِ وَقُصُورِهِ، وَفَرَاغِ يَدِهِ مِن كُلِّ حَولٍ وَقُوَّةٍ، هَاتِفًا: "إِنَّ لِلكَونِ إِلَهًا لاَ أَستَطِيعُ مُجَادَتَهُ، وَلِلطَّبِيعَةِ

سُنَّةٌ لاَ أَستَطِيعُ تَبدِيلَهَا".

-3-

كُنَّا نَبتَهِجُ بِكُلِّ جَدِيدٍ كَمَا تَبتَهِجُونَ ، وَنَنفُرُ مِن كُلِّ قَدِيمٍ كَمَا تَنفُرُونَ ، وَنَعُدُّ الزّوَالَ آيَةَ الآيَاتِ مَهْمَا سَخَفَ

وَاسْتَبْرَدِ ، وَالآخَرُ نَكبَةُ النَّكَبَاتِ مَهمَا عَلَت قِيمَتُهُ ، وَنَفَسُ قَدرِهِ — لاَ لأَنَّنَا وَازِنًا بَينَهُمَا وَفَاضَلنَا بَينَ مَزَايَاهُمَا فَحَكَمنَا

عَلَيهِمَا ، بَلِ لأَنَّنَا كُنَّا قَرِيْنِي العَهدِ بِزَمَنِ الطُّفُولَةِ : وَالطِّفلُ سَرِيعُ الْمِلَلِ ، كَثِيرُ السَّآمَةِ ، لاَ يَصبِرُ عَلَى لُعبَتِهِ أَكثَرَ مِن يَومٍ

وَاحِدٍ ، ثُمَّ يَمِلُّهَا فَيَكسُرُهَا وَيَستَبدِلُ بِهَا .

وَكُنَّا مَولِعِينَ بِالتَّقَالِيدِ وَلَّعَكُم بِهِ ، لاَ نَكَادُ نَعرِفُ لأَنفُسِنَا صُورَةً خَاصَةً تَرتَكِزُ عَلَيهَا أَعمَالُنَا فِي الْحَيَاةِ ، بَل

كَانَت تَمُرُّ بِنَا جَمِيعُ الصُّوَرِ عَلَى اخْتِلاَفِ أَنوَاعِهَا وَأَلوَانِهَا . فَنَلتَقِطُهَا بِأَسرَعِ مِمَّا يَلتَقِطُ ((الفِلَمُ)) صُوَرَهُ . كَانَ فَضَاءُ حَيَاتِنَا

مَعمَلاً لِتَجَارِيبِ الْحَيَاةِ وَاخْتِبَارَاتِهَا .

وَكَانَ العَارِفُ مِنَّا بِلُغَةٍ أَجنَبِيَّةٍ لاَ يَلبِثُ أَن يَفتَتِنَ بِهَا وَبِأَصحَابِهَا افْتِنَانًا شَدِيدًا ، رُبَّمَا حَملُهُ عَلَى احْتِقَارِ لُغَتِهِ

وَتَارِيخِهَا ، فَيَتَرَفَّعُ عَن ذِكرِ رِجَالِهَا وَعُظَمَائِهَا فِي أَحَادِيثِهِ وَاستِشهَادَاتِهِ ، وَيَسخَرُ مِنهُم كُلَّمَا جَرَى ذِكرُهُم عَلَى

لِسَانِ أَحَدِ غَيرِهِ ، لاَ لأَنَّهُ يَفهَمُهُم ، أَو يَفهَمُ غَيرَهُم ، بَلِ لأَنَّهُ كَانَ غَرًّا غَرِيرًا يَحتَقِرُ كُلَّ مَا فِي يَدِهِ وَيَستَعظَمُ كُلَّ مَا فِي

يَدِ غَيرِهِ

-4-

وَلَم نَعرِفْ – إِلاَّ بَعدَ زَوَالِ ذَلِكَ العَهدِ – أَنَّنَا كُنَّا مُخطِئِينَ فِي جَمِيعِ هَذِهِ التَّصَوُّرَاتِ وَالأَفْكَارِ ، وَأَنَّهَا لَم تَكُن

عَقَائِدُ رَاسِخَةً فِي نُفُوسِنَا ، بَل أَشبَاحًا وَصُوَرًا تَتَرَاءَى فِي سَمَاءِ حَيَاتِنَا فَنَعجِبُ بِهَا ، وَنَستَطِيرُ فَرحًا وَسُرُورًا بِجَمَالِ

مَنظَرِهَا، وَبَهجَةِ أَلوَانِهَا فَأَصبَحنَا مُعتَدِلِينَ فِي آرَائِنَا ، مُتَئَدِّينَ فِي أَحكَامِنَا ، نُحِبُّ حُرِّيَّةَ الْمَرْأَةِ ، وَلَكِنَّا نُكرِهُ المُغَالاَةَ

فِيهَا ، وَنَأخُذُ مَوَادَ الْمَدِينَةِ وَالْحَضَارَةِ مِنَ الأُمَمِ الْمُتَمَدِّينَةِ، وَلَكِنَّا لاَ نُقَلِّدُهَا ، وَنُحِبُّ أَدَبَ الغَرِبِيِّينَ ، وَنَعجَبُ بِأُدَبَائِهِم

وَعُلَمَائِهِم ، وَلَكِنَّا لاَ نَحتَقِرُ مِن أَجلِ ذَلِكَ رِجَالَ تَارِيخِنَا .

[كُنَّا نَعتَقِدُ أَنَّنَا خَيرٌ مِن آبَائِنَا وَأَجدَادِنَا ، وَأَوسَعُ مِنهُم عِلمًا ، وَأَقوَى إِدرَاكًا . وَرُبَّمَا اعْتَقَدنَا فِي الكَثِيرِ

مِنهُم – كَمَا تَعتَقِدُونَ فِينَا اليَومَ – أَنَّهُم جَاهِلُونَ أَو مُخْرَفُونَ ، إِلاَّ أَنَّ ذَلِكَ لَم يَكُنْ يَمنَعُنَا مِن أَن نَحفَظَ لَهُم مَنْزِلَةَ

الأُبُوَّةِ وَكَرَامَتِهَا ، فَلاَ نُلَقِّبُهُم بِلَقَبٍ مِن هَذِهِ الأَلقَابِ الَّتِي تُلَقَّبُونَنَا بِهَا ، وَلاَ نُذَكِّرُهُم فِي حُضُورِهِم أَو فِي غَيبَتِهِم

بِكَلِمَةِ سُوءٍ تُنَغِّضُ عَلَيهِم مَا قَدَّرَ لَهُم أَن يَقضُوهُ بَينَنَا مِن أَيَّامِ حَيَاتِهِم . وَكَانَ شَأنُنَا مَعَهُم فِي بِرِّهِم وَإِكرَامِهِم

وَاحتِرَامِ عَقَائِدِهِم وَمَذَاهِبِهِم – مَعَ اتِّسَاعِ مَسَافَةِ الْخَلَفِ بَينَنَا وَبَينَهُم – شَأنُ خَالِدِ بنِ عَبدِ اللهِ القَصرِى أَمِيرِ العِرَاقِ

، إِذ كَانَ مَسِيحِيًّا فَأَسلَمَ وَحَسُنَ إِسلاَمُهُ . وَكَانَ أَبُوهُ لاَ يَزَالُ عَلَى دِينِهِ ، فَطَلَبَ إِلَيهِ أَن يَبنِيَ لَهُ بِيعَةً فِي قَصرِهِ يَقُومُ

فِيهَا بِأَدَاءِ وَاجِبَاتِهِ الدِّينِيَّةِ ، فَبَنَاهَا لَهُ كَمَا أَرَادَ ، وَلَم يَنعِ عَلَيهِ شَأنًا مِن شُئُونِهِ طُولَ أَيَّامِ حَيَاتِهِ حَتَّى ذَهَبَ إِلَى رَبِّهِ .]

ذَلِكَ مَا تَضَرَّعَ إِلَيكُم فِيهِ أَن تَحفَظُوهُ لَنَا، كَمَا حَفَظنَاهُ مِن قَبلِكُم لآبَائِنَا وَأَجدَادِنَا. وَاذكُرُوا أَنَّهُ سَيَأتِى عَلَيكُم

ذَلِكَ اليَومُ الَّذِي أَتَى عَلَينَا ، وَأَنَّكُم سَتَكرَهُونَ فِيهِ أَن يُعَامِلَكُم أَبنَاؤُكُم وَأَحفَادُكُم بِمِثلِ مَا تُعَامِلُونَنَا بِهِ اليَومَ.

(٧) شُيُوخُ ا لصُّوفِيّينَ

-1-

إِبرَاهِيمُ بنُ أَدهَمِ بنِ مَنصُورِ التَّمِيمِيّ البَلخِيّ، وَكُنْيَتُهُ أَبُو إِسحَاقِ وَمِن كُورَةِ بَلَخِ، وَبِهَا كَانَ مَنبَتُهُ، وَمُرَبَّاهُ، وَفِيهَا تَرَعرَعَ وَنَمَا ، وَقَوَى سَاعَدُهُ، وَكَانَ أَبُوهُ مَلِكًا مِن مُلُوكِ خُرَاسَانِ ، فَنَشَأَ إِبرَاهِيمُ كَمَا يَنشَأُ أَبنَاءُ الْمُلُوكِ مُتَقَلِّبًا فِي أَحضَانِ الْمُلكِ ، مَحُوطًا بِأَسبَابِ النَّعِيمِ، لاَ يَشغَلُهُ مِن أَمرِ العَيشِ مَا يَشغَلُ غَيرُهُ مِنَ الكَادِحِينَ، وَقَد شَبَّ مَولِعًا بِالصَّيدِ ، مُحِبًّا لَهُ.

رَكِبَ فَرَسَهُ يَومًا، وَخَرَجَ يَصِيدُ وَلَيسَ مَعَهُ إِلاَّ كَلبُهُ، وَفِيمَا هُوَ عَلَى فَرسِهِ، لاَحَ لَهُ عَن بُعدٍ ثَعلَبٌ أَو أَرنَبٌ، فَحَرَّكَ فَرسَهُ نَحوَهُ، وَلَم يَكَدْ يَخطُو خَطَوَاتٍ حَتَّى سَمِعَ مُنَادِيًا يُنَادِى وَيَقُولُ : يَا إِبرَاهِيمُ، مَا لِهَذَا خُلِقتَ وَلاَ بِهَذَا أُمِرتَ. فَوَقَفَ وَجَعَلَ يَنظُرُ إِلَى وَرَاءِ، ثُمَّ إِلَى اليَمِينِ وَإِلَى الشِّمَالِ، وَلَكِنَّهُ لَم يَرَ شَيئًا ! فَقَالَ : لَعَنَ اللهُ الشَّيطَانَ ! ثُمَّ أَخَذَ فِيمَا خَرَجَ مِن أَجلِهِ، وَحَرَّكَ فَرَسَهُ، وَلَكِنَّهُ سَمِعَ نِدَاءَ أَعلَى مِنَ الأَوَّلِ يَقُولُ : يَا إِبرَاهِيمُ، مَا لِهَذَا خُلِقتَ، وَلاَ لِهَذَا أُمِرْتَ. فَوَقَفَ، وَأَطَالَ النَّظَرُ إِلَى الوَرَاءِ، ثُمَّ إِلَى اليَمِينِ وَإِلَى الشَّمَالِ، وَإِلَى قُدَامِ، وَلَكِنَّهُ لَم يَرَ شَيئًا ! وَقَالَ : لَعَنَ اللهُ الشَّيطَانَ ! ثُمَّ حَرَّكَ فُرسَهُ، فَجَاءَهُ النِّدَاءُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ مِن قَربُوسِ سِرَجِهِ، وَهُوَ يَقُولُ : يَا إِبرَاهِيمُ، مَا لِهَذَا خُلِقتَ، وَلاَ بِهَذَا أُمِرتَ !.

فَوَقَفَ وَقَالَ : هَيهَاتَ، جَاءَنِي النَّذِيرُ، مِن رَبِّ العَالَمِينَ، وَاللهِ مَا عَصَيتُ رَبِّي بَعدَ يَومِي هَذَا أَبَدًا، وَلَقَد عَصَمَنِي .

ثُمَّ أَدَارَ عِنَانَ فَرسِهِ، وَجَاءَ إِلَى أَهلِهِ، وَتَرَكَ فَرسَهُ، وَبَادَرَ فَقَصَدَ رَاعِيًا مِن رُعَاةِ أَبِيهِ، فَأَخَذَ جُبَّتَهُ وَكِسَاءَهُ، وَأَلقَى إِلَيهِ ثِيَابَهُ، ثُمَّ خَرَجَ هَائِمًا هَارِبًا إِلَى رَبِّهِ، فَلَم يَزَلْ تَقِلُّهُ أَرضَ، حَتَّى بَلَغَ العِرَاقَ، فَعَمِلَ بِهَا أَيَّامًا؛ قَالَ : فَلَم يَصِفْ لِي شَيءٌ مِنَ الْحَلاَلِ، فَسَأَلتُ بَعضَ مَشَايِخِهَا عَنِ الْحَلاَلِ، وَأَينَ يَكُونُ؟ فَقَالَ : عَلَيكَ بِالشَّامِ. قَالَ : فَانصَرَفتُ إِلَى بَلدَةٍ يُقَالُ لَهَا الْمَنصُورِيَّةَ، وَعَمِلتُ بِهَا أَيَّامًا،

-2-

فَلَم يَصِفْ لِي شَيءٌ مِنَ الْحَلاَلِ، فَسَأَلتُ بَعضَ الْمَشَايِخِ فَقَالَ : إِن أَرَدتَ الْحَلاَلَ فَعَلَيكَ بِطَرسُوسِ، فَإِنَّ الْمُبَاحَاتِ بِهَا، وَالعَمَلُ فِيهَا كَثِيرٌ، فَانصَرَفتُ إِلَيهَا، فَبَينَمَا أَنَا قَاعِدٌ عَلَى بَابِ البَحرِ، إِذ جَاءَنِي رَجُلٌ فَاكتَرَانِي أَنظُرُ لَهُ بُستَانًا، فَتَوَجَّهتُ مَعَهُ، وَأَقَمتُ بِالبُستَانِ أَيَّامًا كَثِيرَةً، فَإِذَا خَادِمٌ مِن خَدَمِ صَاحِبِ البُستَانِ قَد أَقبَلَ وَمَعَهُ أَصحَابٌ لَهُ، وَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِهِ الْمَقَامُ قَالَ : يَا نَاظُورُ، فَأَجَبتُهُ، فَقَالَ: اِذْهَبْ فَأتِنَا بِأَكبَرِ رُمَّانٍ تُقَدَّرُ عَلَيهِ، وَاخْتَرْ أَطيَبَهُ، فَذَهَبتُ وَأَتَيتُ بِمَا طَلَبَ فَكَسَرَ الْخَادِمُ وَاحِدَةً، فَوَجَدَهَا حَامِضَةً، فَقَالَ: يَا نَاظُورُ، أَنتَ مُنذُ كَذَا وَكَذَا فِي بُستَانِنَا، وَلاَ تَعرَفُ الْحُلوَ مِنَ

الْحَامِضِ! فَقُلتُ لَهُ : وَاللهِ مَا أَكَلتُ مِن فَاكِهَتِكُم شَيئًا وَلاَ أَعرَفُ حُلوَهَا مِن حَامِضِهَا، فَغَمَزَ الْخَادِمُ أَصحَابَهُ

وَقَالَ : أَلاَ تَعجِبُونَ مِن هَذَا ! ثُمَّ قَالَ لِي : لَو كُنتَ إِبرَاهِيمَ بنَ أَدهَمِ مَا كُنتَ بِهَذَا الصِّفَةِ !.. وَتَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا، وَجَاءُوا

إِلَى البُستَانِ، فَلَمَّا رَأَى كَثرَتَهُم، اِنْسَلَّ هَارِبًا مِنهُم، وَهُم يَدخُلُونَ !.

-3-

وَقَد حَكَى عَنهُ ، أَنَّهُ كَانَ فِي بُستَانِ كُرمٍ يَحرُسُ ، إِذ مَرَّ بِهِ جُندِيٌّ فَقَالَ لَهُ : أَعطِنَا مِن هَذَا العِنَبِ، فَقَالَ لَهُ :

إِنَّ صَاحِبَهُ لَم يَأذَنْ لِي، فَضَرَبَهُ بِالسَّوطِ، فَطَأطَأَ رَأسُهُ وَقَالَ : اِضرِبْ رَأسًا طَالَمَا عَصَى اللهُ يَا سَيِّدِي الْجُندِيُّ فَاسْتَحيِ

الرَّجُلُ، وَتَرَكَهُ وَمَضَى.

وَجَالَ إِبرَاهِيمُ فِي الأَقطَارِ لِطَلَبِ العِلمِ، وَأَخَذَ عَن كَثِيرٍ مِن عُلَمَائِهَا، حَتَّى تَفَقَّهَ وَاسْتَوفَى مَا عِندَهُم، وَكَانَ يَعِيشُ

مِنَ العَمَلِ فِي الْحَصَادِ، وَحِفظِ البَسَاتِينَ وَالْحَملِ، وَالطِّينِ، وَيَشتَرِكُ مَعَ غُزَّاةِ الْمُسلِمِينَ فِي قِتَالِ الرُّومِ، وَجَاءَهُ إِلَى بَلدَةِ

الْمَصِيصَةِ – مِن أَرضِ الرُّومِ – عَبدُ لأَبِيهِ، يَحمِلُ إِلَيهِ عَشرَةَ الآفِ دِرهَمٍ، وَيُخبِرُهُ أَنَّ أَبَاهُ قَد مَاتَ فِي بَلَخٍ، وَخَلَّفَهُ مَلِكًا

عَظِيمًا، وَمَالاً كَثِيرًا، فَأَعتَقَ العَبدَ، وَوَهَبَ لَهُ الدَّرَاهِمَ، وَلَم يَعبَأْ بِمُلكِ أَبِيهِ وَلاَ مَا لَهُ وَكَانَ رَحِمَهُ اللهُ صَوَّامًا قَوَّامًا، مُقِيمًا

وَظَاعِنًا، وَيَنطِقُ بِالفُصحَى لاَ يَلحَنُ، وَكَانَ إِذَا حَضَرَ مَجلِسَ سُفيَانَ الثَّورِيِّ وَهُوَ يَعِظُ، أَوجَزَ سُفيَانُ فِي كَلاَمِهِ ، مُخَافَةً أَن

يَزِلَّ، وَكَانَ دَائِمًا النَّظَرُ إِلَى الأَرضِ، حَيَاءً مِنَ اللهِ تَعَالَى.

وَمِن كَرَامَتِهِ، أَنَّهُ دَخَلَ بَغدَادَ يَومًا فِي أَمطَارٍ، مَنكُوشَ الشَّعرِ، فَصَفَّعَهُ بَعضُ الجُندِ عَلَى قَفَاهُ فَفَرَّ وَهُوَ يَقُولُ :

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ، فَصَفَعَهُ ثَانِيًا، فَفَرَّ وَدَعَا لَهُ، فَصَفَعَهُ ثَالِثًا وَإِذًا بِيَدِ الجُندِيِّ طَارَتْ مِن ذِرَاعِهِ فَسَقَطَ!! وَخَرَّ إِبرَاهِيمُ

عَلَى وَجهِهِ، فَاجتَمَعَ عَلَيهِ السَّادَةُ الصُّوفِيَّةُ وَقَالُوا : أَهَكَذَا لَقَد دَعَوتَ عَلَى الرَّجُلِ، فَقَالَ: مَا دَعَوتُ عَلَيهِ وَلَكِنَّ صَاحِبُ

العُنُقِ غَارَ عَلَى عُنُقِهِ.

(٨) بَعضُ مَشَاهِيرِ الشُّجعَانِ فِي الإِسلاَمِ

-1-

[أَشجَعُ الْخَلقِ كُلِّهُم، وَأَنْجَدُهُم، مُحَمَّدٌ بنُ عَبدِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ – وَكَيفَ لاَ وَالشَّجَاعَةُ فَضِيلَةُ

قُوَّةِ الغَضَبِ، وَانقِيَادُهَا لِلعَقلِ، وَالنَّجدَةُ ثِقَةُ النَّفسِ عِندَ اسْترِسَالِهَا إِلَى الْمَوتِ، حَيثُ يُحمَدُ فِعلُهَا دُونَ خَوفٍ. وَكَانَ

– صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ – مُنهِمًا بِالْمَكَانِ الَّذِى لاَ يَجهَلُ، فَقَد حَضَرَ الْمَوَاقِفَ الصُّعبَةَ، وَفَرَّ الكَمَاةُ وَالأَبطَالُ عَنهُ

غَيرَ مَرَّةٍ، وَهُوَ ثَابِتٌ لاَ يَتَزَحزَحُ، وَمُقبِلٌ لاَ يَدبِرُ، وَمَا شُجَاعٌ إِلاَّ وَقَد أُحصِيَتْ لَهُ فَرَّةٌ، وَحَفِظَتْ عَنهُ جَولَةٌ سِوَاهُ،

قَالَ ((البَرَاءُ)) – رَضِيَ اللهُ عَنهُ – وَقَد سَأَلَهُ رَجُلٌ : أَفَرَرتُم يَومَ حُنَينٍ عَن رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ :

لَكِن رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ – لَم يَفِرْ، ثُمَّ قَالَ : لَقَد رَأَيتُهُ عَلَى بُغلَتِهِ البَيضَاءِ وَ " أَبُو سُفيَانَ بنُ الْحَارِثِ

" آخِذٌ بِلُجَامِهَا وَالنَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ : " أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبَ، أَنَا ابنُ عَبدِ الْمُطَّلِبِ ".] فَمَا رَؤَى

– يَومَئِذٍ – أَحَدٌ كَانَ أَشَدَّ مِنهُ، وَقَالَ غَيرُهُ : نَزَلَ النَّبِيُّ بَغلَتَهُ.

وَذَكَرَ " مُسلِمُ " عَنِ " العَبَّاسِ " قَالَ : لَمَّا التَقَى الْمُسلِمُونَ وَالكُفَّارُ وَلَّى الْمُسلِمُونَ مُدبِرِينَ، وَطَفِقَ رَسُولُ اللهِ

– صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ – يَرْكَضُ بَغلَتَهُ نَحوَ الكُفَّارِ، وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِهَا أَكُفُّهَا إِرَادَةَ أَلاَّ تَسرَعُ، وَ " أَبُو سُفيَانِ "

آخِذٌ بِرُكَّابِهِ، ثُمَّ نَادَى " يَا لِلمُسلِمِينَ " الْحَدِيثَ.

-2-

وَقَالَ " العَبَّاسُ " أَيضًا فِي رِوَايَةِ " ابْنِ اسْحَاقِ " : كُنتُ آخِذًا بِلِجَامِ بَغلَتِهِ البَيضَاءِ قَد شَجَرَتَهَا بِهِ. وَقَالَ : وَكُنتُ امْرُءًا جَسِيمًا شَدِيدَ الصَّوتِ، قَالَ : وَرَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ – حِينَ رَأَى مَا رَأَى مِنَ النَّاسِ – : أَينَ أَيُّهَا النَّاسُ؟. فَلَم أَرَ النَّاسُ يَلوُونَ عَلَى شَيءٍ، فَقَالَ : يَا عَبَّاسُ، اِصرَخْ. يَا مَعشَرُ الأَنصَارِ ! لَبَّيكِ. وَكَرُّوا عَلَى " هَوَازِنِ " فَكَسَّرُوهُم.

وَقِيلَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ – إِذ غَضِبَ وَلاَ يَغضَبُ إِلاَّ لِلَّهِ. لَم يَقُم لِغَضَبِهِ شَيءٌ، وَقَالَ ابْنُ عُمَرِ : مَا رَأَيتُ أَشجَعَ، وَلاَ أَجوَدَ، وَلاَ أَرضَى مِن رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ – وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: إِنَّا كُنَّا إِذَا اشْتَدَّ البَأْسُ وَاحْمَرَّتِ الْحَدقُ، اِتَّقَينَا بِرَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ – فَمَا يَكُونُ أَحَدٌ أَقرَبُ إِلَى العَدُوِّ مِنهُ، وَلَقَد رَأَيتَنِي يَومَ بَدرٍ، وَنَحنُ نُلَوِّذُ بِالنَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ – وَهُوَ أَقرَبُ إِلَى العَدُوِّ، وَكَانَ مِن أَشَدِّ النَّاسِ – يَومَئِذٍ – بَأسًا، وَكَانَ الشُّجَاعُ مِن أَصحَابِهِ هُوَ الَّذِي يَقرَبُ مِنهُ – صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ – إِذَا دَنَا العَدُوُّ، لِقُربِهِ مِنهُ.

وَعَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ قال : كَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ – أَحسَنَ النَّاسِ، وَأَجوَدَ النَّاسِ، وَأَشجَعَ النَّاسِ؛

لَقَد فَزِعَ أَهلُ الْمَدِينَةِ لَيلَةً، فَانطَلَقَ نَاسُ، قِبَلَ الصَّوتِ، فَتَلَقَّاهُم رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ – رَاجِعًا، قَد سَبَقَهُم

إِلَى الصَّوتِ، وَاستَبرَأَ الْخَبَرَ، وَهُوَ عَلَى فَرسِ – لأَبِي طَلحَةَ – عَرَى، وَالسَّيفُ فِي عُنُقِهِ، وَهُوَ يَقُولُ :"لَن تَرَاعُوا"،

-3-

وَقَالَ عِمرَانُ بنُ حَصِينِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: مَا لَقِيَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ – كُتَيبَةً، إِلاَّ كَانَ أَوَّلُ مَن

يَضرِبُ.

وَلَمَّا رَآهُ أُبَي بنُ خَلَفِ يَومَ أُحُدٍ وَهُوَ يَقُولُ : أَينَ مُحَمَّدٌ؟ لاَ نَجَوتُ إِن نَجَا ! وَكَانَ قَد قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ

وَسَلَّمَ : حِينَ افْتَدَى يَومَ بَدرٍ: عِندِي فَرَسٌ أَعلَفُهَا كُلَّ يَومٍ فَرقًا مِن ذَرَّةٍ، أَقتُلُكَ عَلَيهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ : بَل أَنَا أَقتُلُكَ –

إِن شَاءَ اللهُ – فَلَمَّا رَآهُ يَومَ أُحُدٍ شَدَّ أُبَي عَلَى فَرسِهِ يُرِيدُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ – فَاعتَرَضَهُ رِجَالٌ مِنَ

الْمُسلِمِينَ، فَقَالَ لَهُم – صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ – : هَكَذَا خُلُوا إِلَيَّ طَرِيقَهُ، وَتَنَاوَلَ الْحَربَةَ مِنَ الْحَارِثِ بنِ الصُّمَةِ وَكَانَ

الصَّحَابَةُ الَّذِينَ مَعَهُ – إِذ ذَاكَ – تَعَلَّقُوهُ بِهِ، يُرِيدُونَ أَلاَّ يُبرَزُ بِنَفسِهِ إِلَى أُبَي، وَيَكفِيهِ ذَلِكَ رَجُلٌ مِنهُم، فَانتَفَضَ بِالْحَربَةِ

انْتِفَاضَةً، تَطَايَرُوا عَنهُ تَطَايُرَ الشُّعَرَاءُ عَن ظَهرِ البَعِيرِ، إِذَا انْتَفَضَ (وَالشُّعَرَاءُ ذُبَابٌ لَهُ لَذَعٌ) ثُمَّ اسْتَقبَلَهُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ – فَطَعَنَهُ فِي عُنُقِهِ طَعنَةً تُدَهدَهُ مِنهَا عَن فَرَسِهِ مِرَارًا، وَقِيلَ: بَل كَسَرَ ضَلعًا مِن أَضلاَعِهِ، فَرَجَعَ إِلَى قُرَيشٍ يَقُولُ : قَتَلَنِي مُحَمَّدٌ وَهُم يَقُولُونَ : لاَ بَأسَ عَلَيكَ ! فَقَالَ : لَو كَانَ مَابِي بِجَمِيعِ النَّاسِ لَقَتَلَهُم، أَلَيسَ قَد قَالَ : " أَنَا أَقتُلُكَ " وَاللهِ لَو بَصَقَ عَلَيَّ لَقَتَلَنِي ! فَمَاتَ يَسرَفُ فِي قُفُولِهِم إِلَى مَكَّةَ .

-4-

قَالَ أَنَسُ : كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ – أُعطِيَ قُوَّةُ ثَلاَثِينَ رَجُلاً أَخرَجَهُ النَّسَائِيُّ وَنَحوُهُ، عَن أَبِي رَافِعٍ وَقَد وَرَدَتِ ٱلأَخبَارُ بِأَنَّهُ – صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ – صَارَعَ رُكَانَةَ بنَ يَزِيدِ الْمَطلَبِي . وَكَانَ أَشَدُّ أَهلِ وَقتِهِ. وَكَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ – دَعَاهُ إِلَى الإِسلاَمِ، فَقَالَ مُستَهزِئًا بِهِ : إِن صَرَعتَنِي يَا مُحَمَّدُ، أَمَنُ بِكَ. فَصَرَعَهُ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، وَأَسلَمَ رُكَانَةُ.

قَالَ السُّهَيلُ : وَقَد صَرَعَ أَيضًا أَبَا الأَشَدَينِ الْجُمحِي وَكَانَ أَقوَى رَجُلٍ فِي العَرَبِ مِرَارًا، وَلَم يَسلِمُ، وَكَانَ أَبُو أَشَدَينِ يَقِفُ عَلَى جَلدَةِ بَقَرَةٍ، وَيَجذَبُهُ عَشَرَةٌ مِنَ الفِتيَانِ لِيَنتَزِعُوهُ مِن تَحتِ قَدَمِهِ، فَيَتَمَزَّقُ الْجَلدُ، وَلاَ يَتَزَحزَحُ عَنهُ، وَقَد

قَالَ لِقُرَيشٍ : إِنَّ جُنُودَ رَبِّ مُحَمَّدٍ الَّتِي يُخَوِّفُكُم بِهَا تِسعَةُ عَشَرَ، أَكفُونِي اثْنَينِ، وَأَنَا أَكفِيكُم سَبعَةُ عَشَرَ، إِعجَابًا مِنهُ بِنَفسِهِ.

وَبِالْجُملَةِ فَهُوَ – صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ – وَإِخوَانِهِ مِنَ الرُّسُلِ لاَ يُدَانِيهِم أَحَدٌ مِنَ الْخَلقِ فِي الشَّجَاعَةِ وَغَيرِهَا، وَكَيفَ لاَ ! وَقَد جَمَعَ اللهُ فِيهِم سَائِرَ خِصَالِ الكَمَالِ، وَتَتَبَّعَ أَحوَالُهُ فِي غَزَوَاتِهِ وَمُنَاضَلَةِ الْخَلقِ تَضَيُّقُ عَن تَحرِيرِهِ هَذِهِ العُجَالَةُ، وَأَشجَعُ النَّاسِ بَعدَ الأَنبِيَاءِ عَلَيهِم الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ الصَّحَابَةُ – رِضوَانُ اللهِ عَلَيهِم – وَأَشجَعُ الصَّحَابَةِ وَأَقوَاهُم عَزمًا أَبُو بَكرٍ الصَّدِيقِ.

(٩) وَصْفُ الصَحابَةِ يَوْمَ مَاتَ الرَّسُولُ عَلَيهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ

-1-

[لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَانَ أَبُو بَكرٍ – رَضِيَ اللهُ عَنهُ – فِي أَرضٍ لَهُ بِالسَّنحِ، فَتَوَاتَرَتْ إِلَيهِ الرُّسُلُ، فَأَتَى

وَقَد ذَهِلَ النَّاسُ، وَتَفَرَّقَتْ أَحوَالُهُم، وَاضْطَرَبَتْ أُمُورُهُم، فَكَذَّبَ بَعضُهُم بِمَوتِهِ، وَصَمَتَ آخَرُونَ وَمَا تَكَلَّمُوا كَأَنَّهُمُ

الْخَرَسُ، وَخَلَطَ آخَرُونَ، فَنَطَقُوا بِغَيْرِ بَيَانٍ، وَحَقَّ لَهُم ذَلِكَ؛ لِلرَّزْيَةِ العُظمَى، وَالْمُصِيبَةِ الكُبرى.

وَكَانَ عُمَرُ بنُ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللهُ عَنهُ – مِمَّن كَذَّبَ بِمَوتِهِ، وَقَالَ: مَا مَاتَ؛ وَلَيُرجِعَنَّهُ اللهُ، وَسَأَقطَعُ أَيدِيَ

الْمُنَافِقِينَ وَأَرجُلَهُم؛ إِذ يَتَمَنَّونَ لِرَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ – الْمَوتَ وَإِنَّمَا وَاعَدَهُ رَبُّهُ، كَمَا وَاعَدَ مُوسَى وَسَيَعُودُ

إِلَيكُم.

وَأَمَّا عُثمَانُ – رَضِيَ اللهُ عَنهُ – فَكَانَ مِمَّن أَخرَسَ فَلَم يُكَلِّمْ أَحَدًا، وَصَارَ النَّاسُ يَأخُذُونَ بِيَدِهِ وَيَجِيئُونَ بِهِ –

فَيُنقَادُ.]

وَأَمَّا عَلِيٌّ – رَضِيَ اللهُ عَنهُ – فَقَعَدَ كَالْمَصرُوعِ فِي بَيتِ الرَّسُولِ لَم يَبْرَحْهُ، حَتَّى دَخَلَ أَبُو بَكرٍ فِي وِقَارِهِ وَثَبَاتِ

عَقلِهِ، وَرَزَانَةِ مَنطِقِهِ فَمَالَ عَلَى الرَّسُولِ، وَكَشَفَ عَن وَجهِهِ، وَقَبَّلَ جَبِينِهِ، وَبَكَى بُكَاءً شَدِيدًا، وَقَالَ : " بِأَبِي أَنتَ وَأُمِّي

طِبتَ حَيًّا وَطِبتَ مَيِّتًا، وَانقَطَعَ لِمَوتِكَ – مَا لَم يَنقَطِعْ لِمَوتِ أَحَدٍ مِنَ الأَنبِيَاءِ، مِنَ النُّبُوَّةِ. فَعَظَمتَ عَنِ الصِّفَةِ وَجَلَلتَ عَنِ

البُكَاءِ وَلَو لاَ أَنَّكَ نَهَيتُ عَنِ البُكَاءِ لأَنفَدنَا عَلَيكَ مَاءَ الشَّئُونِ فَأَمَّا مَالاَ نَستَطِيعُ نَفيَهُ عَنَّا فَكَمَدَ وَادْنَافَ، يَتَحَالَفَانِ وَلاَ

يَبرَحَانِ، وَلَو لاَ مَا خَلَّفتَ مِنَ السَّكِينَةِ لَم نَقُم، لَمَّا خَلَّفتَ مِنَ الوِحشَةِ، اللَّهُمَّ فَأَبلِغْهُ عَنَّا السَّلاَمَ، أُذكُرنَا يَا مُحَمَّدُ عِندَ رَبِّكَ".

-2-

وَلَمَّا خَرَجَ إِلَى النَّاسِ – وَهُم فِي شَدِيدِ غَمَرَاتِهِم وَعَظِيمِ سَكَرَاتِهِم – قَامَ فَخَطَبَهُم قَائِلاً : " أَشهَدُ أَن لاَ إِلَهَ إِلاَّ

اللهُ، وَحدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَشهَدُ أَنَّ الكِتَابَ كَمَا نُزِلَ وَأَنَّ الدِّينَ كَمَا شُرِحَ وَأَنَّ الْحَدِيثَ

كَمَا حُدِّثَ وَأَنَّ القَولَ كَمَا قَالَ، وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ".

أَيُّهَا النَّاسُ، مَن كَانَ يَعبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَد مَاتَ، وَمَن كَانَ يَعبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ، وَإِنَّ اللهَ قَدِ

اخْتَارَ لِنَبِيِّهِ مَا عِندَهُ عَلَى مَا عِندَكُم، وَقَبَضَهُ إِلَى ثَوَابِهِ، وَخَلَّفَ فِيكُم كِتَابَهُ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ فَمَن أَخَذَ بِهِمَا عَرَفَ وَمَن فَرَّقَ

بَينَهُمَا أَنكَرَ : " يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ "، وَلاَ يَشغَلَنَّكُمُ الشَّيطَانُ بِمَوتِ نَبِيِّكُم، وَلاَ يَفتِنَنَّكُم عَن

دِينِكُم.

فَلَمَّا فَرَغَ مِن خُطبَتِهِ قَالَ : يَا عُمَرُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَقُولُ : مَا مَاتَ نَبِيُّ اللهِ. أَمَا عَلِمتَ أَنَّهُ قَرَأَ عَلَينَا فِي يَومٍ كَذَا وَفِي

يَومِ كَذَا قَولَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَيِّتُونَ) ؟

فَقَالَ عُمَرُ : وَاللهِ لَكَأَنِّي لَم أَسمَعْ بِهَا فِي كِتَابٍ قَبلَ اليَومِ أَشهَدُ أَنَّ الكِتَابَ كَمَا نُزِلَ، وَأَنَّ الْحَدِيثَ كَمَا حُدِّثَ

وَأَنَّ اللهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ. إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ.

ثُمَّ جَلَسَ إِلَى جَنبِ أَبِي بَكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا.

مِنْ كَلاَمِ الْمَرْحُوْمِ اْلأُسْتَاذِ اْلإِمَامِ الشَّيْخِ مُحَمَّد عَبْدُه فِي مَعْنَى :

(١٠) الشَّرَفُ

-1-

[الشَّرَفُ كَلِمَةٌ يَهتِفُ بِهَا أَقوَامٌ مُختَلِفَةٌ مِنَ النَّاسِ، إلاَّ أَنَّ أَكثَرَهُم عَن حَقِيقَةِ مَعنَاهَا غَافِلُونَ :

فِئَةٌ تَرَى الشَّرَفَ فِي تَشيِيدِ القُصُورِ، وَالتَّعَالِي فِي البُنيَانِ، وَزَخرَفَةِ الْحَوَائِطِ وَالْجُدرَانِ، وَوَفرَةِ الْخَدَمِ الْحَشَمِ، وَاقتِنَاءِ الْجِيَادِ، وَرُكُوبِ العَرَبَاتِ؛ وَفِئَةٌ أُخرَى تَتَوَهَّمُ أَنَّ الشَّرَفَ لَبسُ الفَاخِرُ مِنَ الثِّيَابِ، وَالتَّزَيُّنُ بِأَلوَانِ الأَلبِسَةِ وَأَنوَاعِهَا، وَالتَّحَلِّى بِالْجَوَاهِرِ الثَّمِينَةِ وَالأَحجَارِ الكَرِيْمَةِ كَالْمَاسِ وَاليَاقُوتِ وَالزُّمرُدِ وَنَحوِهَا، وَفِئَةٌ تَتَخَيَّلُ الشَّرَفَ فِي الأَلقَابِ وَالرُّتَبِ، أَو فِي الأَوسِمَةِ وَعُلُوِّ أَسْمَائِهَا، حَتَّى إِنَّكَ تَرَى الرَّجُلَ يَسلُبُ مَالَ أَخِيهِ، وَيَنهُبُ ثَروَةَ أَقَارِبِهِ وَذَوِيهِ؛ لِيُشَيَّدَ بِمَا يُصِيبُ مِنَ السُّحتِ قَصرًا، وَيَرفَعَ وَيُزَخرِفَ بَيتًا، وَيُقِيمُ لَهُ حُرَّاسًا مِنَ الْمَمَالِيكِ وَخَفرًا مِنَ الغِلمَانِ – وَيَظُنُّ بِذَلِكَ أَنَّهُ نَالَ مَجدًا أَبَدِيًّا، وَفَخَارًا سَرمَدِيًّا، وَتَجِدُ الآخَرَ يَذهَبُ فِي الكَسْبِ أَشنَعُ مِمَّا يَذهَبُ الأَوَّلُ، لِيَكتَسِيَ بِرَفِيعِ الثِّيَابِ، وَيُتَزَيَّنَ بِأَجْمَلِ الحُلِيِّ، أَو لِيَكُونَ لَهُ مِن ذَلِكَ مَا يُفَاخِرُ بِهِ أَمثَالُهُ، وَيَتَخَيَّلُ أَنَّهُ بَلَغَ بِهِ دَرَجَةً مِنَ الرِّفعَةِ لاَ يُدَانِي فِيهَا؛ وَيُعَبِّرُ عَن حَالِهِ هَذَا بِلَفظِ "الشَّرَفِ" وَيَتَوَهَّمُ أَنَّهُ وَصَلَ الْحَقِيقَةَ مِن مَعنَاهُ]

وَمِنهُم ثَالِثٌ يَسهَرُ لَيلَهُ وَيَقطَعُ نَهَارَهُ بِالفِكرِ فِي وَسِيلَةٍ يَنَالُ بِهَا لَقَبًا مِن تِلكَ الأَلقَابِ، أَو يَحصُلُ بِهَا وِسَامًا، أَو يَستَفِيدُ وِشَاحًا، وَسَوَاءٌ عِندَهُ الوَسَائِلَ يَطلُبُ بِهَا أَيًّا كَانَ نَوعُهَا، وَإِن أَفضَت إِلَى خَرَابِ بِلاَدِهِ، أَو إِذلاَلَ أُمَّتِهِ، أَو تَمزِيقَ مِلَّتِهِ.

وَعِندَهُ أَنَّهُ رَقَى الذَّروَةَ مِن مَعنَى الشَّرَفِ.

مَاذَا يَجِدُ مِن نَفسِهِ الْمُبَاهَى بِقُصُورِهِ، وَوِلدَانِهِ وَحُورِهِ؟ أَلاَ يَحُسُّ مِن نَفسِهِ أَنَّهُ ، وَإِن جَازَ مِنهَا أَعلَى مَا يَتَصَوَّرُهُ العَقلُ فَذَاتُهُ – الَّتِي هِيَ أَعَزُّ لَدَيهِ مِن جَمِيعِ مَا كَسَبَ – لَم تَستَفِدْ شَيئًا مِنَ الكَمَالِ؟ وَأَنَّ جَمِيعَ مَا حَصَلَهُ فَهُوَ أَجنَبِيٌّ عَنهُ، وَلَيسَ لَهُ نِسبَةٌ إِلَيهِ إِلاَّ نِسبَةُ العِنَاءِ فِي تَحصِيلِهِ؟

أَلاَ يَرَى أَنَّ كَثِيرًا مِمَّن بَلَغَ مَبلَغَهُ، أَو فَاقَهُ، سَلَبَتهُم صُرُوفُ الدَّهرِ مَا بِأَيدِيهِم، فَأَصبَحُوا بِصِفَاتِهِم وَجَوَاهِرِ ذَوَاتِهِم؟! فَإِن لَم تَكُنْ عَلَى جَانِبٍ مِنَ الكَمَالِ الإِنسَانِيّ انْحَرَطَت فِي سِلكِ الطَّبَقَاتِ السَّافِلَةِ، وَلَم يَبقَ لَهَا فِي القُلُوبِ مَنْزِلَةٌ، وَلاَ فِي نُفُوسِ مَكَانَةٌ.

-2-

الشَّرَفُ حَقِيقَةٌ مَحدُودَةٌ، كَشَفَتهَا الشَّرَائِعُ، وَحَدَّدَتْهَا عُقُولُ الكَامِلِينَ مِنَ البَشَرِ. وَلَيسَ لِذِي شَاكِلَةٍ إِنسَانِيَّةٍ أَن

يَرتَابَ فِي فَهمِهَا إِلاَّ مَن خَتَمَ اللهُ عَلَى قَلبِهِ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً .

الشّرَفُ بَهَاءٌ لِلشَّخصِ يَخُومُ عَلَيهِ بِالأَنظَارِ، وَيُوَجِّهُ إِلَيهِ الْخَوَاطِرُ وَالأَفكَارُ. وَجَمَالٌ يَرَونَ حُسنَهُ فِي البَصَائِرِ وَالأَبصَارِ.

وَمُشرِقُ ذَلِكَ البَهَاءِ عَمَلٌ يَأتِيهِ صَاحِبُهُ يَكُونُ لَهُ أَثَرٌ فِي أُمَّتِهِ، أَو فِي النَّوعِ الإِنسَانِ عَامَةً. كَانْقَاذِ مِن تَهلُكِهِ، أَو كَشفٍ لِجَهَالَةٍ، أَو تَنبِيهِ لِطَلَبِ حَقّ سَلبِ، أَو تَذكِيرِ بِمَجدِ سَبَقِ، أَوِ انْهَاضِ مِن عَثرَةٍ، أَو إِيقَاظِ مِن غَفلَةٍ، أَو إِرشَادِ لِخَيرٍ يَعُمُّ، أَو تَحذِيرِ مِن شَرّ يَعُمُّ، أَو تَهذِيبِ أَخلاَقٍ أَو تَثقِيفِ عُقُولِ، أَو جَمعِ كَلِمَةٍ، أَو تَجدِيدِ رَابِطَةٍ، أَو إِعَادَةِ قُوَّةٍ، أَو إِنشَالِ مِن ضَعفٍ أَو إِيقَادِ حَمِيَّةٍ.

مَن أَتَى عَمَلاً مِنَ الأَعمَالِ لَهُ أَثَرٌ مِن هَذِهِ الآثَارِ فَهُوَ الشَّرِيفُ، وَإِن كَانَ يَسكُنُ الْخَصَاصَ وَالأَكوَاخَ وَيَلبَسُ الأَسْمَالَ، وَيَقتَاتُ بِنَبَاتِ البَرّ، وَيَبِيتُ عَلَى تُرَابِ القَفرِ، وَيَتَوَسَّدُ نَشرَ الأَرضِ، وَيَضرَبُ فِي كُلّ وَادٍ، وَيَتَرَدَّدُ بَينَ الرُّبَا وَالوَهَادِ. هَذَا لَهُ حُلِيَّةٌ مِن عَمَلِهِ، وَزِينَةٌ مِن فَضلِهِ، وَبَهَاءٌ مِن كَمَالِهِ، وَضِيَاءٌ مِن جَدِّهِ، يُهدَى إِلَيهِ ضَالَةَ الأَلبَابِ، وَتَائِهَةَ

الأَفْئِدَةِ، وَلَهُ مِن رُوحِهِ قُصُورٌ، وَنُورٌ زَاهِرٌ " إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ –وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ

ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ "